أسلوب الحكيم

عند الإمام الطيبي

في كتابه

الكاشف عن حقائق السنن

إعداد

د/ أحمد سعد سعد جاويش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا ، وأتم علينا نعمته ، ورضي لنا الإسلام دينا ، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد ، وأبلغ هادٍ هدى الله به العباد إلى سبل الرشاد ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتابَ ومِثْلَهُ مَعَه " [١] ليبين أن هدي سنته في الحجّيّة كهدي الكتاب ، ولكي لا يدع مجالاً لشبهات المبطلين الضالين عن الحق والصواب . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أولي العزائم والألباب ، وسلم تسليماً دائماً يشفِّعه فينا يوم يقوم الحساب . أما بعد..

فإن خير ما يثري البحث البلاغي ، وأفضل ما يعنى به دارسوا البلاغة العربية بعد آيات الذكر الحكيم ؛ هو البيان النبوي المعمور بالأساليب الراقية ، والتراكيب المحكمة والمعاني الفيّاضة ، فجدير بالباحثين أن يرتعوا في رياضه ، ويقتبسوا من سنا أنواره . لذا وجّهت عنايتي للإفادة من كنوز ذلك البيان الشريف ، ويمّمت ساحته لأنهل من معينه الصافي ، لعلّي أقدّم شيئاً نافعاً للدراسات البلاغية .

ويَسَّرَ الله لي هادياً يضيء سبيل البحث في أحاديث سيد الخلق ﷺ ويكشف النقاب عن مخَدَّرات معانيها ويضع يد الدارس أوالباحث على مواطن الإعجاز في البلاغة النبوية ، ألا وهو شرح مشكاة المصابيح للإمام شرف الدين الطيبي ، وهو كتاب جليل القدر، واسع المعارف ،

---

(١) سنن أبي داود : كتاب السنة : باب في لزوم السنة : (٢ / ٥٠٥ـ ط الحلبي)، ومسند الإمام أحمد : حديث رقم (١٧١٧٤) .

عظيم الحجم ، قد أتقن مصنفه رحمه الله فيه استخراج الغرر والفوائد من الأحاديث الشريفة .

ونظراً لكثرة المباحث البلاغية وتنوعها في هذا السفر الجليل ، فقد استخرت الله تعالى في دراسة أسلوب واحد من الأساليب البلاغية المنثورة فيه ، لكي يتركز حوله البحث ولا يتشعب في فنون مختلفة ؛ ربما إذا تناولتها الدراسة لا توفيها حقها ، فشاء الله تعالى أن يقع الاختيار على أسلوب الحكيم ودراسته من خلال شرح الإمام شرف الدين الطيبي للأحاديث المجموعة في كتاب مشكاة المصابيح للتبريزي ، وهذا الشرح هو المسمى : " الكاشف عن حقائق السنن " .

وكان من أهم أسباب اختياري لهذا الموضوع :

أولاً : أن أتشرف بخدمة السنة النبوية المطهرة من الوجهة البلاغية، ولو ببحث على قدر جهدي الضعيف . وهو جهد المقلّ . عسى الله أن يجعله ذخراً لي عنده ، وأن يخلص نيتي لوجهه الكريم ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم :" إِنَّمَا الأعْمَالُ بالنِيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى .. " الحديث [١] .

ثانياً : أني وجدت هذا الأسلوب لم تصنع له دراسة مستقلة ، ولم يتناوله الدارسون في بحث خاص به . فيما أعلم . بينما كثرت الدراسات والأبحاث في غيره من الأساليب البلاغية ، فرأيت أن أساهم بدراسته في هذا البحث .

---

(١) صحيح البخاري : افتتاح الصحيح : باب كيف كان بدء الوحي : الحديث الأول (١ / ١٣) .

ثالثاً : عناية الطيبي رحمه الله في شرحه وتحليلاته للأحاديث ببيان دقائق البلاغة النبوية العالية ، إلى جانب شرحه لما في ألفاظ الحديث من المشكلات وتلخيص معانيه وإظهار لطائفه على نحو ما تقتضيه علوم اللغة والنحو والمعاني والبيان ، وإلى جانب بيان الأحكام الشرعية التي يشتمل عليها الحديث ، فقد وجدت أنه يهتم بإبراز ما في الحديث الشريف من النكات البلاغية ، ويعنى عناية خاصة ببيان أسرار التفوق والإعجاز في التعبيرات النبوية ، فأردت أن أفيد من جهوده البلاغية في هذا المضمار .

وقد احتوى هذا البحث على : تمهيد ، ومدخل ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة.

التمهيد :

في التعريف بالإمام الطيبي ، ومصنفاته ـ والتعريف بالخطيب التبريزي وكتابه مشكاة المصابيح ـ ثم التعريف بشرح المشكاة للطيبي ودوره في تحليل البلاغة النبوية .

والمدخل : في دراسة أسلوب الحكيم عند البلاغيين ، ثم بيان موقف الإمام الطيبي منه وطريقة بحثه له .

والمبحث الأول : في الضرب الأول من أسلوب الحكيم عند الطيبي، ونماذجه .

والمبحث الثاني : في الضرب الثاني من أسلوب الحكيم عنده ودراسة نماذجه من أحاديث المشكاة .

والمبحث الثالث : في الضرب الثالث : وهو ما يقرب من أسلوب الحكيم ، كما سمّاه الطيبي في شرحه : ضابطه ، ونماذجه .

والخاتمة : في بيان أهم نتائج البحث وثمرة الدراسة التي جرت حول نماذج هذا الأسلوب فيه .

واللهَ أسأل أن يهدينا سبل الرشاد ، وأن يأخذ بأيدينا للصواب ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التعريف بالإمام الطيبي

اسمه ونسبه :

هو الإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي . كما ورد في ختام كتاب " أسماء رجال مشكاة المصابيح" للخطيب التبريزي حيث قال :

" وأنا أضعف العباد الراجي عفو الله وغفرانه محمد بن عبد الله الخطيب بمعاونة ومعاضدة شيخي ومولاي سلطان المفسرين وإمام المحققين من الملة والدين ، حجة الله على المسلمين : الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي ، متعهم الله بطول بقائه "[١].

ونسبته هذه إلى بلدة تسمى " الطِيب " بكسر الطاء ، من إقليم خوزستان .

وقد ذكر القلقشندي أن هذه البلدة من خوزستان ضمن الأقاليم الواقعة جنوبي مملكة إيران ، ثم قال عنها : " وهي بلدة بين واسط وبين الأهواز .. وإلى الطِيب هذه ينسب الطيبي صاحب الحواشي على الكشاف"[٢] .

---

(١) ينظر: الدراسة التي في صدر كتاب " التبيان في البيان" للطيبي : تحقيق د. عبد الستار زموط (ص ١٦).

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا : للقلقشندي : (٤ / ٣٣٩) . وينظر : مفتاح السعادة ومصباح السيادة :
لأحمد طاشكبرى زاده : (٢ / ١٠١) .

لكن جاء في تاريخ ابن خلدون : أن الطيبي من أهل " توريز" من عراق العجم [١] . و" توريز" هي " تبريز" ، وهي من إقليم أذربيجان الواقع شمالي مملكة إيران ، كما يذكر القلقشندي [٢] .

عقيدته ومذهبه :

يذكر الحافظ ابن حجرالعسقلاني أن الطيبي : " كان حسن المعتقد شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة ، مظهراً فضائحهم مع استيلائهم في بلاد المسلمين حينئذ ، شديد الحب لله ورسوله... شرح الكشاف شرحاً كبيراً ، وأجاب عما خالف أهل السنة أحسن جواب " [٣].

ويقول ابن خلدون : " ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي ؛ شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع ألفاظه ، وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة ، لا على ما يراه المعتزلة ، فأحسن في ذلك ما شاء ، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذي علم عليم " [٤] .

وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن الطيبي كان إماماً في عقيدة أهل السنة والجماعة ، داعياً إليها ومنافحاً عنها ، وكُتبُه شاهدة له بذلك ، لكثرة ما ورد فيها من الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل البدع ، والاحتجاج لمذهب أهل السنة ، وإلزام الحجة لمن خالفهم .

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، لابن خلدون : (٢ / ٧٨٨) .
(٢) صبح الأعشى : (٤ / ٣٥٧) .
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجرالعسقلاني : (٢ / ١٨٦) .
(٤) تاريخ ابن خلدون : (٢ / ٧٨٨ ، ٧٨٩) .

وأما مذهبه الفقهي فقد رجّح بعض من حقق حاشيته " فتوح الغيب" أنه شافعي المذهب [١] ، ويؤيد ذلك ما أورده صاحب طبقات الشافعية مما يفيد أن الطيبي تتلمذ على أحد فقهاء الشافعية ، وهو الشيخ فخرالدين أحمد الجاربردي ، حيث نقل تاج الدين السبكي عن الشيخ إبراهيم بن أحمد الجاربردي قوله :

" وأما الذين اجتمعوا عند والدي واشتغلوا عليه ، وتمثلوا بين يديه فهم العلماء الأبرار والصلحاء الأخيار.. منهم الإمام الهمام شرف الدين الطيبي ، شارح الكشاف والتبيان ، وهو كالشمس لا يخفى بكل مكان"[٢].

مكانته العلمية :

يتضح من خلال حديث العلماء عن شخصية الطيبي ، وما كشفوا عنه من ملامح تلك الشخصيه ؛ أنه كان صاحب منزلة علمية مرموقة بين علماء عصره ، له من جلالة القدر والباع في علوم التفسير والحديث والعربية والبيان وغيرها ما يومىء إليه قول الجلال السيوطي في وصفه : " الإمام العلاّمة في المعقول والعربية والمعاني والبيان" [٣] .

ووصفه ابن حجر العسقلاني بأنه : كان " آية في استخراج الدقائق من القران والسنن ،شرح الكشاف شرحاً كبيراً..يعرف فضله من طالعه"[٤].

---

(١) تحقيق ودراسة فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب : سورة الأنعام والأعراف : رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية : جامعة الأزهر- للباحث جميل محمد الحسين المحمود : (ص ١١ ، ١٢) .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين السبكي : (١٠ / ٧٦) .

(٣) بغية الوعاة : (١ / ٥٢٢) .

(٤) الدرر الكامنة : (٢ / ١٨٦) .

وقال الشوكاني : " وحاشيته على الكشاف هي أنفس حواشيه على الإطلاق ، مع ما فيها من الكلام على الأحاديث في بعض الحالات إذا اقتضى الحال ذلك على طريقة المحدِّثين مما يدل على ارتفاع طبقته في علمي المعقول والمنقول" (١).

كما سبقت عبارة الشيخ إبراهيم الجاربري التي عدّ فيها الطيبي من " العلماء الأبرار ، والصلحاء الأخيار" ، ونعته بأنه : " الإمام الهُمام الشيخ شرف الدين الطيبي .. وهو كالشمس لا يخفى بكل مكان" (٢).

شيوخه وتلاميذه :

لم تحفظ لنا كتب التراجم أثارةً من علم عن أسماء شيوخ الطيبي أو تلاميذه ، اللهم إلا ما نقله الإمام السيوطي عن أحد كتبه ، حيث يقول : " ذكر في شرحه على الكشاف أنه أخذ على أبي حفص السهروردي" (٣) . وهو شهاب الدين محمد بن محمد السهروردي (٤).

وإلا ما جاء في " طبقات الشافعية " عن الشيخ إبراهيم الجاربردي ؛ مما أفاد أن الطيبي كان ممن تتلمذ على والده الشيخ فخر الدين أحمد الجاربردي ، وهو قوله : " وأما الذين اجتمعوا عند والدي واشتغلوا عليه

---

(١) البدر الطالع : (١ / ٢٢٩) .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى : (١٠ / ٧٦) .

(٣) بغية الوعاة : (١ / ٥٢٢) .

(٤) ينظر ترجمته التى أوردها محقق كتاب "التبيان في البيان" أستاذنا الدكتورعبد الستار زموط في أول الكتاب : (صـ ٢٢ ، ٢٣) .

وتمثلوا بين يديه ؛ فهم العلماء الأبرار والصلحاء الأخيار، بذلوا الأنفس والأموال ، منهم الإمام الهمام الشيخ شرف الدين الطيبي.." [١].

وأما تلاميذه فقد ذكر صاحب " كشف الظنون" عرضاً اسم تلميذ له أثناء حديثه عن كتاب " التبيان للإمام الطيبي " ، حيث قال : "..ثم شرحه تلميذه علي بن عيسى ، وسماه : حدائق البيان " [٢] .

ومن تلاميذه أيضاً : الشيخ ولى الدين محمد بن عبد الله الخطيب بن محمد التبريزي العمري صاحب كتاب " مشكاة المصابيح " التى شرحها الطيبي ، وهو من المحدّثين ، ويستفاد ذلك من العبارة الوارده في ختام كتاب التبريزي " أسماء رجال مشكاة المصابيح" [٣] .

وفاته :

ذكر صاحب " الدرر الكامنة " ومن نقل عنه أن الطيبي : " دخل مسجداً عند بيته ، فصلَّى النافلة قاعداً ، وجلس ينتظر الإقامة للفريضة، فقضى نحبه متوجهاً إلى القبلة ، وذلك يوم الثلاثاء الثالث عشر من شعبان سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة "[٤].

---

(١) طبقات الشافعية : (١٠ / ٧٦) .

(٢) كشف الظنون ، لحاجي خليفة : (١ / ٣٤١) . ولم أعثر . فيما تيسرمن المصادر . على ترجمة لعلي بن عيسى هذا ، للتعريف به وبجهوده العلمية .

(٣) التبيان في البيان: بتحقيق أستاذنا الدكتورعبد الستار زموط : قسم الدراسة (صـ ٢٤). وينظر: صـ ٢ مما سبق

(٤) الدرر الكامنة (٢ / ١٨٦) ، وبغية الوعاة (١ / ٥٢٢) ، والبدر الطالع (١ / ٢٢٩) ، وشذرات الذهب : (٦ / ١٣٧) .

ولم يتعرض أصحاب التراجم لتعيين مكان وفاته أو دفنه ، كما لم يبينوا كم كان له من العمر حين وافته المنية ، رحمه الله تعالى وسقى جدثه من سحائب رضوانه .

مصنفاته :

خلَّف شرف الدين الطيبي آثاراً علمية في مجالات مختلفه ، حافلة بتحقيقاته النفيسة ، وتدقيقاته العلمية القيّمة . وإليك أسماء تلك المصنفات المنسوبة إليه :

١ ـ **التبيان في البيان** : وقد طبع غير مرة ، حيث اعتنى بتحقيقه ودراسته أستاذنا الدكتور عبد الستار زموط رحمه الله (١٩٧٧م).

٢ ـ **لطائف التبيان في المعاني والبيان** : وقد طبع وقام بتحقيقه الدكتور عبد الحميد هنداوي ـ (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

٣ ـ **فتوح الغيب والكشف عن قناع الريب** : وهو حاشيته على الكشاف للزمخشري ، وتسمى أيضاً بشرح الكشاف .

وذكر السيوطي أنه قبيل الشروع في هذا الشرح رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، وقد ناوله قدحاً من اللبن فشرب منه [١] .

وهو مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٤٥ تفسير) في تسعة مجلدات [٢].

---

(١) بغية الوعاة : (١ / ٥٢٣) .

(٢) ينظر: قسم الدراسة في كتاب " التبيان" بتحقيق الدكتورعبد الستار زموط (ص ٢٥) . وقد تمّ في السنوات الماضية تحقيق هذا المخطوط في عدة رسائل جامعية بعضها في جامعة الأزهر، كرسالة الدكتور جميل الحسين المحمود لنيل درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بالقاهرة .

٤ ـ **الخلاصة في أصول الحديث** : وهو مطبوع بتحقيق الأستاذ صبحي السامرائي ـ في بغداد (١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م) .

٥ ـ **تفسير للقرآن الكريم** : ذكره ابن حجر العسقلاني [١]. ولم نعثرعلى ذكر لهذا التفسير في فهارس الكتب المطبوعة ، ولا المخطوطة.

٦ ـ **شرح أسماء الله الحسنى** : وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٦٦ مجاميع) ، وهذا الشرح ضمن مجموعة تقع في ٢٣٢ ورقة. والشرح يقع في ٥٤ ورقة ؛ من الورقة ١٤٨ إلى الورقة ٢٠٢ [٢].

٧ ـ انفرد بروكلمان بنسبة كتاب " أسماء رجال المشكاة " : إلى الطيبي. والصواب أنه لتلميذه **محمد** بن عبد الله الخطيب التبريزي ، وإنما كان الطيبي معاوناً وموجهاً له فقط ، كما أفادت عبارة التبريزي في ختام هذا الكتاب ،وسبق نصها في صدر هذا المبحث[٣].

٨ ـ **مقدمات في علم الحساب** : ذكره الأستاذ قدري طوقان في كتابه " تراث العرب العلمي" . وكذا نسبه له صاحب معجم المؤلفين [٤].

٩ ـ شرح لكتابه " التبيان في البيان" : ذكره ابن حجر العسقلاني [٥]. لكن حقق أستاذنا الدكتورعبد الستار زموط رحمه الله ـ بعد اطلاعه على

---

(١) الدرر الكامنة : (٢ / ١٥٦) .

(٢) ينظر: قسم الدراسة في كتاب " التبيان" بتحقيق الدكتور عبد الستار زموط (ص ٢٥) .

(٣) ينظر : (ص ٢) .

(٤) التبيان بتحقيق الدكتورعبد الستار زموط : قسم الدراسة (ص ٢٥) .

(٥) المصدر نفسه . وينظر: معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة : (٤ / ٥٣) .

النسخة المخطوطة منه ـ أنه هو نفسه كتاب "حدائق البيان" لعلي بن عيسى ، تلميذ الإمام الطيبي [١] .

١٠ ـ **الكاشف عن حقائق السنن** : وهو شرح "مشكاة المصابيح" وقد طبع بتحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي (١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م).

وهذا الكتاب هو الميدان الفسيح الذي نجري بحثنا هنا -بمشيئة الله- في جانب محدود منه . فنسأل الله تعالى العون والسداد ، والتوفيق للصواب .

---

(١) الدرر الكامنة : (٢ / ١٥٦) .

التعريف بالخطيب التبريزي وكتابه مشكاة المصابيح وعمله فيه

أولاً : التعريف بالخطيب :

هو ولي الدين أبوعبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي الشافعي ، الشهير بخطيب الفخرية . من علماء الحديث في القرن الثامن الهجري . ذكر صاحب " هدية العارفين" أنه توفي عام (٧٤٩ هـ) .

من مؤلفاته : " مشكاة المصابيح" أي مصابيح السنة للبغوي. فرغ منه سنة (٧٣٧) و"الإكمال في أسماء الرجال" وهو في أسماء رجال أحاديث المشكاة . و"غرة التأويل في التفسير" . و"مجالس في التفسير والموعظة " [١] .

وقد أثنى عليه شيخه العلاّمة الطيبي ، والذي جمع الخطيب المشكاة بمشورته ومعاونته ، فقال في مقدمة شرحه للمشكاة :

" وكنت قبل قد استشرت الأخ في الدين ، المساهم في اليقين ، بقية الأولياء ، قطب الصلحاء ، شرف الزهاد والعباد ، ولي الدين محمد بن عبد الله الخطيب ـ دامت بركته ـ بجمع أصل من الأحاديث المصطفوية ، على صاحبها أفضل التحية والسلام ، فاتفق رأينا على تكملة المصابيح وتهذيبه وتشذيبه ، وتعيين رواته ، ونسبة الأحاديث إلى الأئمة

([١]) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، لإسماعيل باشا البغدادي : (٢ / ٢٨) . وينظر: الأعلام (٦ / ٢٤٣) ، ومعجم المؤلفين (١٠ / ٢١١) ، وكشف الظنون (٢ / ١٦٩٨) .

المتقنين، فما قصّر فيما أشرت إليه من جمعه ، فبذل وسعه ، واستفرغ طاقته فيما رمت إليه " [١] .

ثانياً : التعريف بالمشكاة وبيان عمله فيه :

يومئ هذا النص الأخير الذي نقلناه عن مقدمة الطيبي لشرحه على المشكاة إلى أن كتاب مشكاة المصابيح ؛ إنما هو تكملة لكتاب " مصابيح السنة " وتعيين لرواته ، وتهذيب له . وكتاب "مصابيح السنة " للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، المتوفى سنة (٥١٦ هـ) هو كتاب جمع فيه الأحاديث الصحاح والحسان من الكتب السبعة : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن أبى داود ، والترمذي ، والنسائي ، والدارمي ، وابن ماجة .

إلا أن البغوي حذف أسانيد هذه الأحاديث للتيسير وتجنب الإطالة [٢] .

وقد أوضح التبريزي في مقدمة كتابه منهجه وأنه بيّن ما أغفله صاحب المصابيح ، وتركه بلا إسناد فذكر راوي الحديث ، ومخرّجه ، وقسَّم كل باب في إلى ثلاثة فصول:

الأول : وهو بدل قول البغوي في المصابيح "من الصحاح " : ما أخرجه الشيخان أو أحدهما ، واكتفي بذكرهما في التخريج . وإن اشترك فيه غيرهما من المحدّثين . لعلوّ درجتهما في الرواية .

---

(١) شرح الطيبي على المشكاة " الكاشف عن حقائق السنن" : (٢ / ٣٦٨) .

(٢) ينظر: قسم الدراسة من " الكاشف عن حقائق السنن " تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي (١ / ٣٣ . ٣٥) .

الثاني : وهو بدل قول البغوي في المصابيح "من الحسان " : ما أورده غيرهما من الأئمة المذكورين ، وهم أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، والدارمي ، وابن ماجه .

الثالث : ما اشتمل على معنى الباب ولم يذكره البغوي في الكتاب من ملحقات مناسبة ألحقها لزيادة الفائدة ، محافظاً على ما اشترطه من إضافة الحديث إلى الراوي من الصحابة ، ونسبته إلى مخرِّجه من الأئمة المتقدمين . وقد فرغ الخطيب التبريزي من كتابه هذا في يوم الجمعة من رمضان سنة (٧٣٧هـ) وقد شرحه في حياته الإمام الطيبي [١] .

الكاشف عن حقائق السنن وعنايته بالبلاغة النبوية

تبيّن أن للطيبي عناية خاصة بعلوم المعاني والبيان والبديع ، فقد ثبت أن له مصنفين في هذه العلوم على وجه الخصوص : " التبيان في البيان" ، و" لطائف التبيان في المعاني والبيان" ، وكل منهما قد اشتمل على علوم البلاغة الثلاثة. وقد شهدا له بعلوّقدمه وتفننه ، فهو حقيق بأن يُعدّ في مصافّ البلاغيين الذين ساهموا في رفع قواعد هذه العلوم ، وكشف اللثام عن كثير من مسائلها ، وبخاصة إذا لاحظنا أنه كان معاصراً لأحد كبار أئمة البلاغيين ممن صنفوا أمهات الكتب في هذه العلوم ، وهوالخطيب القزويني ـ صاحب الإيضاح وتلخيص المفتاح ـ المتوفى عام (٧٣٩هـ)

ومما يشهد للطيبي أيضاً بطول باعه في علوم البلاغة كتابه "الكاشف عن حقائق السنن" ؛ الذي شرح به " مشكاة المصابيح" شرحاً لا

---

(١) المصدر نفسه : (١ / ٢٩ ، ٣٠) .

نظير له ، مما جعل أكثر من جاء بعده من شرّاح الحديث ينقلون عنه ما يروقهم من التعليقات والفوائد التي أوردها الطيبي في هذا الكتاب .

يقول محقق " الكاشف عن حقائق السنن" في دراسته القيّمة التي صدّره بها :

" وقد بلغ من أهمية هذا الكتاب أن نقل عنه أغلب شراح الحديث ، وخاصة الجلة منهم مصرحين بالأخذ عنه . والحق أن هذا الكتاب جدير بثناء العلماء عليه حقاً ، وقد أبان عن سعة علم الطيبي في فنون الحديث واللغة والبلاغة على السواء ، فضلاً عمّا اشتمل عليه من نكات البلاغة وأسرار الإعجاز النبوي ودقائقه " [١] .

وقد احتذى الطيبي خطة الزمخشري في تفسيره ، وتأثر به تأثراً بالغاً في شرح هذا الكتاب ، وليس أدلّ على ذلك من أنه قد ملأه بحشد كبير من النصوص التي ينقلها من الكشاف ، وكذلك من كتب الزمخشري الأخرى ، كالفائق ، وأساس البلاغة " [٢] .

وقد أبان الطيبي عن خطته في مقدمة الكتاب ، والمنهج الذي سار عليه في شرحه .

من ذلك قوله :

".. شمرت عن ساق الجدّ في شرح معضله ، وحلّ مشكله ، وتلخيص عويصه ، وإبراز نكاته ولطائفه ، على ما يستدعيه غرائب اللغة

([١]) الكاشف عن حقائق السنن : قسم الدراسة : (١ / ٢٦) .

([٢]) الكاشف : (١ / ٣٧) .

والنحو، ويقتضيه علم المعاني والبيان ، بعد تتبع المكتب المنسوبة إلى الأئمة رضي الله عنهم " [١] .

وحسبنا ـ في هذا المقام ـ أن نشير إلى أهم ما تتسم به طريقته في تناول المباحث البلاغية في كتابه هذا ، محاولين إجمال ما فصَّله محققه:

" قد يفرّق الطيبي الكلام على بلاغة الأحاديث في ثنايا شرحه لها، أويفردها ببيانٍ مستقلّ بعد كلامه في شرح الحديث وغريب ألفاظه ، وبيان أحكامه . والأول هو الأكثر... وقد يحتمل الحديث أكثر من وجه من وجوه البلاغة ، فيبيّن الطيبي ذلك...وقد يحتمل الحديث أكثر من معنى ، فيُحَكِّم الطيبي النظم والمقام في تحديد المعنى المراد.." [٢] .

ولعلنا نلاحظ تلك الملامح في هذه الوقفات التي نقفها مع شرحه في بحثنا هذا ، والذي اقتصرنا فيه على " الأسلوب الحكيم" لضخامة حجم الكتاب ـ مع فخامته ـ وسعة مباحثه .

وقبل أن نعرض للنماذج التي ورد بها هذا الأسلوب ـ بعون الله تعالى ـ من أحاديث الكتاب وشرحها ؛ يتعيّن علينا أن نبيّن المراد "بالأسلوب الحكيم" عند البلاغيين ، ومدى اتفاق الطيبي معهم في إطلاقه هذا المصطلح على نماذج من الأحاديث الشريفة .

([١]) الكاشف عن حقائق السنن : (٢ / ٣٦٨) .

([٢]) الكاشف : (١ / ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢) .

أسلوب الحكيم

تحدث البلاغيون عن هذا الأسلوب ضمن مباحث علم المعاني ، فقد أدرجه الإمام السكاكي ضمن أساليب الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وذلك في آخر حديثه عن علم المعاني ، حيث قال : " ولهذا النوع أساليب متفننة ، إذ مامن مقتضى كلام ظاهري إلا ولهذا النوع مدخل فيه بجهة من جهات البلاغة ... ولكل من تلك الأساليب عرق في البلاغة يتسرب من أفانين سحرها ، ولا كالأسلوب الحكيم فيها وهو: تلقي المخاطب بغير ما يترقب .. أو السائل بغير ما يتطلب .." [١] .

وكذلك تناوله الإمام الخطيب القزويني في مبحث ورود المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر، ثم أوضح التعريف السابق مبيناً ضمن تعريفه الغرض منه ، فقال:

" الأسلوب الحكيم : هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب ، بحمل كلامه على خلاف مراده ، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد . أوالسائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله ، أو المهم له " [٢] . وقد تبعهما البلاغيون على ذلك ، فنسج شرّاح التلخيص على منوالهما عند تعرضهم لهذا المبحث [٣] .

([١]) مفتاح العلوم للسكاكي : (ص ٤٣٥ ـ ط دار الكتب العلمية ٢٠٠٠ م) .

([٢]) الإيضاح للخطيب القزويني : (٢ / ٩٤ ــ بتحقيق أستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي رحمه الله) .

([٣]) ينظر : شروح التلخيص (١ / ٤٧٩ ـ ٤٨٣) ، والمطول لسعد الدين التفتازاني (١٣٥) .

وأفاد كلام بعضهم أن الشيخ عبد القاهرالجرجاني ذكر هذا النوع ، وسمّاه المغالطة [١]

ويفهم مما ذكروه أن أسلوب الحكيم يأتي على ضربين :

الأول : تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده . ومثلوا لذلك بقول القبعثرى للحجّاج لما قال له متوعداً بالقيد : " لأحملنّك على الأدهم" ، فقال :

" مِثْلُ الأمير يحمل على الأدهم والأشهب" . أي: على الفرس الأدهم والأشهب . قال الحجّاج : " إنه حديد" . فقال : " لأن يكون حديداً خيرٌ من أن يكون بليداً " .

فإنه حمَلَ كلامه على خلاف مراده ، وأبرز وعيده في معرض الوعد، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد لمن كان في مثل حاله من الجاه والسلطة وارتفاع الشأن وبسطة ذات اليد ، ومن ثمّ تلقاه في خطابه بغير ما يترقب [٢] .

والضرب الثاني : تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره . ومما مثّلوا به لذلك قوله تعالى :

---

(١) ينظر: الإيضاح (٢ / ٩٥) ، وعروس الأفراح للسبكي (ضمن شروح التلخيص: ١ / ٤٧٩) ، وشرح عقود الجمان للسيوطي (١٢٠) .

(٢) المفتاح (٤٣٦) ، والإيضاح (٢ / ٩٤ ، ٩٥) ، وشروح التلخيص (١ / ٤٨٠) ، والتبيان في البيان (٤٣٠) ، وشرح عقود الجمان (١٢٠) ـ بتصرف يسير .

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيل ..) [١] . حيث سألوا عن بيان ما ينفقون ، فأجيبوا ببيان المصارف ، تنبيهاً للسائل بألطف وجه على تعديه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه وأهمّ له إذا تأمّل[٢] .

ولما كان الضرب الأول من هذا الأسلوب يوافق نوعاً من المحسن البديعي المسمى " القول بالموجب" في مفهومه ؛ فإننا وجدنا بعض العلماء والأدباء يطلق على هذا المحسّن نفس الاسم ، كما فعل الإمام السيوطي ، حيث قال :

" من أنواع البديع " القول بالموجب" وهو نوع لطيف جداً .. ويسمى أيضاً : الأسلوب الحكيم " [٣] . وكما صنع ابن حجة الحموي في كتابه " خزانة الأدب" ، حيث قال عند ذكر هذا الفن البديعي : " القول بالموجب: ويقال له أسلوب الحكيم وللناس فيه عبارات مختلفة .." [٤] . وتبعهما في هذه التسمية الشيخ عبد الرحيم العباسي في معاهد التنصيص [٥] .

ففيم وافق أسلوبُ الحكيم "القولَ بالموجب" ؟ وما وجه الشبه بينهما الذي حمَلَ نفرَاً من العلماء على تسمية أحدهما باسم الآخر ؟

---

(١) سورة البقرة : الآية (٢١٥) .

(٢) المفتاح : (٤٣٥ ، ٤٣٦) باختصار . وينظر: التبيان في البيان (٤٣١) .

(٣) شرح عقود الجمان (٣٦٧) .

(٤) خزانة الأدب وغاية الأرب ، لابن حجة الحموي : (١ / ٢٥٨ ـ ط دار الهلال ١٩٨٧م) .

(٥) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، للعباسي (٣ /١٨١ ـ ط عالم الكتب).

ويلزمنا قبل الإجابة عن ذلك التساؤل أن نشير إلى تعريفهم لفن "القول بالموجب" لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوّره .

قال صاحب التلخيص أثناء حديثه عن المحسنات المعنوية : "ومنه القول بالموجب : وهو ضربان : أحدهما أن تقع صفةٌ في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم ، فتثبتها لغيره من غير تعرض لثبوته له أونفيه عنه ، نحو:

(يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلّ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) [١]. .. والثاني : حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده ، مما يحتمله بذكر متعلقه ، كقوله :

قُلتُ ثَقَّلْتُ إذ أتيْتُ مِرَاراً قالَ ثَقَّلْتَ كاهِلِي بالأَيادِي " [٢] .

وظاهر أن الضرب الثاني من "القول بالموجب" على نحو ما في تعريفه هنا يوافق الضرب الأول من الأسلوب الحكيم ؛ الذي سبق بيانه ، إذ في كل منهما خطاب السامع بغير ما يترقب من التعبير ؛ نتيجةً لحمل كلام له على خلاف مراده ، لأنه الأنسب .

ولذا قال بهاء الدين السبكي في شرحه : ".. واعلم أن هذا الضرب الثاني من القول بالموجب هو الأسلوب الحكيم المذكور في علم المعاني"[٣] .

وقد أومأ إلى ذلك عصام الدين بن عربشاه حين تكلم على هذا الضرب من " القول بالموجب" بقوله : " إذا عرفت هذا فلا خفاء أن هذا

---

(١) سورة المنافقون : الآية (٨) .

(٢) تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص : (٤ / ٤٠٦ ـ ٤٠٨) .

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : (٤ / ٤٠٩) . وأيَّده في ذلك شيخنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي رحمه الله في تعليقه على الإيضاح (ينظر : هامش الإيضاح بتحقيقه : ٢ / ٩٤) .

القسم من القول بالموجب ؛ من تلقي المخاطب بغير ما يترقب ، فيكون داخلاً في البلاغة ، لا تابعاً لها " [١] .

أسلوب الحكيم عند الإمام الطيبي :

درس الإمام الطيبي أسلوب الحكيم في كتابه " التبيان في البيان" ضمن الباب الأول من مباحث علم البديع ، وهو " التحسين الراجع إلى المعنى" ، وعلى ذلك فهذا الأسلوب عنده من قبيل المحسنات المعنوية .

والتعريف الذي عرّفه به مأخوذ عن السكاكي والخطيب القزويني ، إلا أنه زاد في أمثلته وشواهده ، معقبّاً بذكر فوائد عن العلماء تتعلق بهذا الأسلوب. فعرّفه بقوله:

" هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب تنبيهاً به على أنه أولى بالقصد... أو تلقيه بغير ما يتطلب " [٢] . ومما استشهد به ـ غير ما ذكروه ـ قوله تعالى :

(أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِن رَبِّه)[٣]. أجابوا :(قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)[٤].

قال الطيبي : " أي إرساله أمر معلوم مكشوف ، لا كلام فيه ، إنما الكلام فى وجوب الإيمان به . وفى عكسه [٥] جواب نمروذ : (أَنَا أُحْيِي

---

(١) الأطول ، لعصام الدين بن عربشاه :(٢ / ٤٥٠ ـ دار الكتب العلمية ٢٠٠١م) .

(٢) التبيان في البيان : (٤٣٠) .

(٣) الأعراف : الآية ٧٥ .

(٤) الأعراف : الآية ٧٥ .

(٥) أي : عكس الأسلوب الحكيم : وهو الأسلوب الأحمق ، كما سيأتي فيما ينقله عن الزمخشري .

وَأُمِيتُ) [١] عن قوله عليه السلام : (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)[٢] فهو من الانتقال من الحجة بعد تمامها إلى الأخرى ، لدلالة جوابه على إلزامه. ولهذا قال جار الله [٣]: " لما سمع جوابه الأحمق" فلا يكون انتقالاً من مثال إلى آخر كما ظنوا ، بل هو ابتداء احتجاج .

قال الراغب :" السؤال ضربان : جدلى ، وتعلمي . وحق الأول مطابقة الجواب من غير زيادة ونقصان . والثاني حقه أن يتحرى المجيب الأصوب كالطبيب الرفيق ؛ يتوخى ما فيه شفاء العليل ، طلبه أم لا .

وقلت مثاله : مَن غلبت عليه السوداء إذا طلب الجبن ، فقيل : عليك بمائه .. ومن قهرته الصفراء إذا اشتهى العسل ؛ قيل : مع الخلّ ..."[٤].

والحاصل أن الطيبي ـ وإن كان قد عدّ أسلوب الحكيم من فنون البديع إذ اعتبره من المحسنات المعنوية ـ ظلّ سائراً على النهج الذي نهجه السكاكي لهذا الأسلوب في تعريفه ، ولم يجعله مرادفاً " للقول بالموجب" كما صنع بعض العلماء والأدباء على نحو ما سبق بيانه .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٨ .

(٣) الكشاف : (١ / ٣٨٨) . وتمام عبارته : " (أنا أحيي وأميت) يريد أعفو عن القتل وأقتل ، وكان الاعتراض عتيداً ، ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه ، ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب ليبهته أول شيء ، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادلة من حجة إلى حجة" .

(٤) التبيان في البيان : (٤٣٢ ، ٤٣٣) .

تناوله لهذا الأسلوب في شرحه :

من خلال استقرائنا للمواضع التى تحدث فيها الطيبي عن هذا الأسلوب في كتابه " الكاشف عن حقائق السنن" أثناء شرحه للأحاديث التى ورد فيها ؛ فإننا نجده قد تأثر تأثراً ظاهراً بمقولة الراغب الأصفهاني، التى وردت آنفاً في النص الذي أورده الطيبي في كتابه " التبيان " ، والتى بيّنت ما ينبغي أن يكون عليه الجواب لكل نوع من السؤال. ومن ثمّ فإننا نجد تحليله للأسلوب الحكيم أثناء شرحه يأتي على ثلاثة أضرب:

الأول : ما كان فيه تلقي المخاطب بغير ما يترقب ، أو جواب السائل على خلاف ما يتطلب ؛ من غير زيادة في جوابه .

والثاني : ما جاء فيه جواب السائل مع زيادة في الجواب بجملة أو أكثر مما ينفع السائل ويكون أولى بحاله وقصده .

وهذا الضرب هو الذي نعنيه بتأثره فيه بقول الراغب : " السؤال ضربان : جدلى ، وتعلّمي . وحق الأول مطابقة الجواب من غير زيادة ونقصان .

والثاني حقه أن يتحري المجيب الأصوب كالطبيب الرفيق يتوخى ما فيه شفاء العليل ؛ طلبه أم لا .... إلخ " [١].

والضرب الثالث : اعتبره الطيبي مما يقرب من أسلوب الحكيم ، لأن فيه تلقياً للمخاطب بغير ما يترقب ، أو تنبيهاً له على ما يليق بحاله ، ويصلح علاجاً لقضيته ، وإن لم يتضمن حملاً لكلامه على خلاف مراده ، وإن لم يتضمن تنبيهاً للسائل على تعدّيه عن موضع سؤال كان الأولى به

([١]) المصدر والموضع نفسه .

أن يسأله لأنه الأنسب لحالته ، على نحو ما يذكر البلاغيون . ومن ثم اعتبره الطيبي قريباً من هذا الأسلوب .

وسيتضح كلٌ من هذه الأضرب جلياً - بعون الله تعالى - في عرضنا للنماذج التى نقف عندها ، وبناء على ما تقدم فقد كان من الملائم لبحث أسلوب الحكيم في كتاب الطيبي الذي عمدنا إليه ؛ أن نصنّف كل طائفة من تلك النماذج تندرج تحت ضرب من الأضرب الثلاثة المذكورة في مبحث مستقل ، وهو ما نسير عليه - بإذن الله تعالى - في دراستنا التالية، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المبحث الأول

الضرب الأول من أسلوب الحكيم

(تلقي المخاطب بغير ما يترقب أو جواب السائل بغير ما يتطلب)[١]

من ذلك : ما روي في المشكاة :

عن مسلم بن يسار ، قال : سُئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن هذه الآية : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٢] . . الآية .

قال عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها ، فقال : " إن الله خَلَقَ آدم ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ ، فاستخرج منه ذُرِّيَّةً ، فقال : خَلَقْتُ هَؤُلاءِ للجنة ، وبِعَمَلِ أهل الجنة يعملون ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فاستخرج منه ذُرِّيَّةً ، فقال ، خَلَقْتُ هَؤُلاءِ للنار ، وبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ " . فقال رجل ففيم العمل يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا خَلَقَ العَبْدَ للجنة استعمله بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حتى يَمُوتَ على عَمَلٍ من أَعمال أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الجَنَّةَ ، وإذا خَلَقَ العَبْدَ للنار

---

(١) هذا العنوان مستنبط من تحليل الإمام الطيبي للنصوص موافقا لما ذكره البلاغيون ، وليس من وضعه .

(٢) الأعراف : الآية ١٧٢ .

اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ "[١] .

في مستهل هذا الحديث سؤال عن معنى الآية التى يدل لفظها على أخذ الميثاق من ذرية بنى آدم ، وإشهادهم على ربوبية الله تعالى لهم ، فجاء الجواب في الحديث بمعنىً غير هذا المعنى ؛ مما ظاهره الاختلاف بين السؤال والجواب .

قال الطيبي : " قال الإمام فخر الدين الرازي : أطبقت المعتزله على أنه لا يجوز تفسيرالآية بالحديث ، لأن قوله "من ظهورهم" بدل من قوله " بنى آدم" فالمعنى : وإذ أخذ ربك من ظهور بنى آدم . فلم يذكر أنه أخذ من ظهر آدم شيئاً ، ولأنه لو كان المراد أنه أخرج من ظهر آدم لما قال : "من ظهورهم" ، بل يجب أن يقول : من ظهره ذرّيته . وأجاب الإمام أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أخرج الذرية من ظهور بنى آدم . وأما أنه أخرج تلك الذرية من صلب آدم ؛ فليس في لفظ الآية ما يدل على ثبوته ولا على نفيه ، إلا أن الخبر قد دلّ عليه ، فثبت إخراج الذرية من ظهور بنى آدم بالقرآن ، وإخراج الذرية من ظهر آدم بالخبر، ولا منافاة بينهما ، فوجب المصيرإليهما معاً ، صوناً للآية والخبر عن الاختلاف" [٢] .

([١]) رواه الترمذي : كتاب تفسير القرآن ـ حديث رقم ٣٠٧٥ : (٥ / ٢٦٦ ط الحلبى) . وأبو داود في كتاب السنة : (٢ / ٥٢٩ ط الحلبي) . وهو في مسند أحمد (١ / ٤٠٠ مؤسسة الرسالة) . وكنز العمال ، للمتقي الهندي : حديث رقم ٥٢٩ : كتاب الايمان والإسلام : (١ / ١١٣ . مؤسسة الرسالة) .

([٢]) الكاشف عن حقائق السنن : (٢ / ٥٥٥) .

وبعد مناقشة للآراء حول هذه القضية ، وتقرير أن ميثاقاً أُخذ في عالم الغيب ، وميثاقاً آخر أُخذ في عالم الشهادة .. يقول الطيبي :

" فإن قلت : فكيف يتطابق السؤال عن معنى الآية والجواب عن معنى الحديث ؟ وبينهما هذا الاختلاف . قلت : يتطابق من حيثية الأسلوب الحكيم ، على منوال قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ)[١] ،

سألوا عن بيان ماذا ينفقونه ، وأجيبوا ببيان المصرف ، وضمّن بيان ما ينفقونه . كذا ههنا سأل الصحابي عن بيان الميثاق الحالي ، فأجيب عن المقالي وضمّن فيه الحالي على ألطف وجه كأنه قيل : الميثاق المسئول عنه ظاهر مكشوف بنصب الدلائل على ربوبيته ووحدانيته في العقول والبصائر ، وجعلها مميزة بين الحق والباطل ، لكن هنا ميثاق آخر خفي عن العقول ، لا يعلمه أحد إلا من أرشده الله إليه ، فاسأل عن ذلك. وفائدته توكيد الميثاقين ، والقيام على العهدين . والله أعلم" [٢].

فالجواب وارد على نمط أسلوب الحكيم هنا ، لاشتماله على بيان أمر آخر لم يكن طلبه السائل ، وهو ما أطلق عليه " الميثاق المقالي" لأنه الأولى باهتمام السائل ، والأجدر بعنايته .

واستخلص الطيبي الفرق بين الميثاقين "الحالي" و "المقالي" من أقوال العلماء ،

ثم بيَّن فائدة هذا الجواب من النبي ﷺ والمغزى من ورائه ، حيث قال: " والحاصل : أن الله تعالى لما كان له ميثاقان مع بني آدم ،

---

(١) سورة البقرة : ٢١٥ .

(٢) الكاشف عن حقائق السنن : (٢ / ٥٥٧) .

أحدهما: تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الباعثة على الاعتراف الحالي . وثانيهما : المقالي الذي لا يهتدي إليه العقل ، بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد ، كالأنبياء عليهم السلام . أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يعلّم الأمة ، ويخبرهم أن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقاً آخر أزلياً ، فقال ما قال من مسح ظهر آدم فى الأزل ، وإخراج الذرية ، والميثاق الآخر" [١] .

وروى فى المشكاة عن عبد الله بن عمرو. رضى الله عنهما. قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى يديه كتابان، فقال: "أتدرون ما هذان الكتابان ؟" قلنا : لا يا رسول الله؛ إلا أن تخبرنا فقال للذى فى يده اليمنى : "هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً" .

ثم قال للذى فى شماله: "هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً" .

فقال أصحابه ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: "سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أى عمل . وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أى عمل . . ." [٢] .

---

(١) الكاشف : (٢ / ٥٥٧) .

(٢) رواه الترمذي : كتاب القدر ـ حديث رقم ٢١٤١ (٤ / ٤٤٩) . وهو في مسند أحمد : (١١ / ١٢١) . وجامع الأصول في أحاديث الرسول ، لابن الأثير : حديث رقم ٧٥٧٧ ـ (١٠ / ١٠٧ ـ ط دار الفكر) .

ومحل الشاهد هنا هو سؤال الصحابة رضي الله عنهم : " ففيم العمل يا رسول الله ؟ " وجواب النبي ﷺ عنه " سَدِّدُوا وقارِبُوا ..." الحديث .

قال الطيبي : " قوله "وسدِّدُوا": اجعلوا أعمالكم مستقيمة على طريق الحق. "وقاربوا" اطلبوا قربة الله وطاعته بقدرما تطيقونه .

هذا الجواب من الأسلوب الحكيم . أي : فيم أنتم من ذكر القدر، وإنما خلقتم للعبادة ، فاعملوا وسددوا وقاربوا . وإليه[1] لمح ما قال الشاعر :

أَتَتْ تَشْتَكِي عِنْدِي مُزَاوَلةَ القِرَى وَقَدْ رَأَتِ الضِيفَانَ يَنْحونَ مَنْزِلِي

فَقُلتُ كَأَنِّي مَاسَمِعْتُ كَلاَمَهَا هُمُ الضَّيْفُ جِدّي في قِرَاهُمْ وَعَجّلِي"[2].

فمضمون السؤال الذي وجهه الصحابة رضوان الله عليهم إلى النبي ﷺ أنه إذا كان قد كتب الله على كل إنسان مصيره بأنه شقي أوسعيد ، وقضى على فريق من الناس بأنه من أهل الجنة ، وعلى فريق آخر بأنه من أهل السعير ؛ فما جدوى العمل الكادح في الطاعات ؟ وما قيمة سعي المؤمن في الأعمال الصالحة ؟ مادامت قد كتبت أسماء أهل النار في كتاب معلوم ، وجمعت أسماء أصحاب الجنة في ديوان آخر مرقوم ، كلٌ منسوبون إلى آبائهم وقبائلهم ، كما أفادهم البيان النبوي .

وإذن فالمصير المحتوم لا يتغير، ومقتضى ظاهر ذلك أن عمل الإنسان لا دور له في تحديد مصيره ، ففيم العناء في تقديم الأعمال ؟ وفيم الكدّ في تحصيل القربات ؟

---

(١) أي : إلى أسلوب الحكيم . والبيتان من شواهد السكاكي عليه (المفتاح : ٤٣٥).

(٢) الكاشف : (٢ / ٥٦٠) .

وكان المترقب في الجواب على هذا التساؤل أن يوضح لهم النبي ﷺ المغزى من وجوب العمل وفائدته ، وقيمته في دار الجزاء ، وعلاقته بذلك المصير المحتوم . ولكنه عليه الصلاة والسلام أعرض عن تلك الإجابات المتوقعة ، ليلفتهم إلى مهمة الإنسان الأساسية المنوطة به في هذه الحياة الدنيا ، وهي أمانة التكليف التي حمّله الله إياها ، ليقوم بحقوق العبودية لله على ظهر هذه البسيطة ، فعليه أن يجتهد قدر استطاعته في القيام بما كلف به ، ويحاول قدر طاقته الوفاء بهذه الأمانة ، فهذا هوالأولى بحاله والأنفع له من أن يشغل باله بما هو من شئون القضاء والقدر، ومن ثم كان الجواب هنا من قبيل أسلوب الحكيم.

ومن هذا القبيل أيضا ما روي في المشكاة عن علي رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ". قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال: "اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)[1] الآية"[2].

---

[1] صحيح البخاري : كتاب الجمعة حديث رقم ٤٩٤٥ (٦ / ١٧٠ دار طوق النجاة) ، وسنن الترمذي : كتاب تفسير القرآن . حديث رقم ٣٣٤٤ (٥ / ٤٤١) . وسنن أبي داود : كتاب السنة: حديث رقم ٤٦٩٦ (٢ / ٥٣٠) . وسنن ابن ماجه : باب في القدر: حديث رقم ٧٨ : (١ / ٣٠ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي) .

[2] سورة الليل : ٥ ، ٦ .

قال الطيبي في شرحه :

" أفلا نتكل : أفلا نعتمد على ما كتب لنا في الأزل ونترك العمل ؟ يعني : إذا سبق القضاء لكل واحد منا بالجنة أو النار فأي فائدة في السعي فإنه لا يردّ قضاء الله وقدره ؟

وأجاب عليه الصلاة والسلام بقوله : " اعملوا " وهو من الأسلوب الحكيم . منعهم ﷺ عن الاتكال وترك العمل ، وأمرهم بالتزام ما يجب على العبد من امتثال أمر مولاه ، وهوعبوديّته عاجلاً ، وتفويض الأمر إليه آجلاً . يعني أنتم عبيد ، ولابد لكم من العبودية ، فعليكم بما أمرتم به ، وإياكم والتصرف في الأمور الإلهية ، لقوله تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[١] ، فلا تجعلوا العبادة وتركها سبباً مستقلاً لدخول الجنة والنار ، بل أمارات وعلامات لها ، ولابد في الإيجاب من لطف الله وكرمه ، أو خذلانه .." [٢].

وروي في المشكاة عن ابن عباس. رضى الله عنهما. قال: "سَجْدَةٌ ص: لَيْسَ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ وَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْجُدُ فِيهَا" .

وفى رواية مجاهد: "قُلتُ لابن عَبَّاس: أَأَسْجُدُ فى (ص) ؟ فَقَرَأَ: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ)[٣] حتى أتى : (فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)[٤] ، فقال: نَبِيُّكُمْ صلى الله عليه وسلم مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ" [٥] .

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢) الكاشف : (٢ / ٥٣٧ ، ٥٣٨) .

(٣) سورة الأنعام : (٨٤ ـ ٩٠) .

(٤) سورة الأنعام : (٨٤ ـ ٩٠) .

(٥) صحيح البخاري : كتاب التفسير ــ حديث ٣٤٢١ : (٤ / ١٦١) ، وجامع الأصول :(٥ / ٥٥٦) .

فالسائل الذي سأل سيدنا عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هنا لم يكن يترقب تلك الإجابة بالآية وذكر الاقتداء ، لأنه سأل عن السجود في آية سورة (ص) ؛ والتي ورد فيها ركوع سيدنا داود عليه السلام ، وهي قوله تعالى :

(وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَاب) [١] ، وإنما توقع السائل

أن يكون جواب سيدنا ابن عباس هنا بالأمر بالسجود أو تركه في هذا الموضع ولكن وقع جوابه هكذا للتنبيه على الأهم ، والأولى بالقصد.

يقول الطيبي : " قوله : " نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدي بهم " الجواب من الأسلوب الحكيم ، أي : إذا كان النبي ﷺ مأموراً بالاقتداء بهم ، فأنت أولى . وقال الإمام فخرالدين الرازي[٢] : الآية دالة على فضل نبينا ﷺ ، لأنه تعالى أمره بالاقتداء بهداهم ولابد من امتثاله بذلك ، فوجب أن يجتمع فيه خصائلهم وأخلاقهم المتفرقة " [٣] .

ومما روى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : "مَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: "اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي" . قالتْ: إِلَيْكَ عَنِّي؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي ، وَلَمْ تَعْرِفْهُ . فَقِيلَ لَهَا : إِنَّهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم . فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صلى الله عليه

---

(١) سورة ص : الآية ٢٤ .

(٢) تفسير الفخرالرازي : (١٣ / ٥٨ ـ ط دار إحياء التراث العربي) .

(٣) الكاشف : (٤ / ١١١٢ ، ١١١٣) .

وسلم، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: "إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى"[١].

قال الطيبي في شرحه :

"... وفائدة قوله (فلم تجد عنده بوَّابين) أنها حين قيل لها : إنه النبي ﷺ استشعرت خوفاً وهيبة في نفسها ، فتصورت أن نبيَّ الله ﷺ كمثل الملوك والعظماء ؛ له حاجب يمنع الناس من الوصول إليه ، فقالت معتذرة : اعذرني من تلك الرَدَّة وخشونتها ، فكان ظاهر الجواب غير ما ذكر من قوله : " الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى" ، ولكن أخرجه مخرج الأسلوب الحكيم ، أي : دعي الاعتذار مني ، فإن من شيمتي أن لا أغضبَ إلا لله ، وانظري إلى تفويتك من نفسك الثواب الجزيل ، والكرامة والفضل من الله تعالى ؛ بالجزع وعدم الصبر عند فجاءة الفجيعة "[٢] .

والملاحظ هنا أن خطاب المرأة للنبي ﷺ والذي ورد على صورة الإيجاز بقولها :

" لم أعرفك" هو خطاب اعتذار لحضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم عمّا بدر منها أولاً وهي عند القبر من إغلاظ القول له ، أي : اعذرني واصفح عن ردّي الجافي لك حينئذ ، فهو لا يليق بجلال قدرك

---

(١) رواه البخاري في الصحيح : كتاب الجنائز ـ باب زيارة القبور : حديث ١٢٨٣ : (٢ / ٧٩) . وأبوداود في سننه : كتاب الجنائز ـ باب الصبر عند الصدمة الأولى : حديث ٣١٢٦ : (٢ / ١٧١) . وابن ماجة في سننه : كتاب الجنائز: حديث ١٥٩٦ : (١ / ٥٠٩) .

(٢) الكاشف : (٤ / ١٤١٩)

ومقامك المعظم ، لأنني لم أدرك آنذاك أنك رسول الله ، ولذا قلت ما قلت . فلما كان هذا تعبيراً عن اعتذارها ؛ كان الجواب المتوقع عليه هو عبارة عن قبول عذرها والعفو عن جهلها ، أوعدم تقبل ذلك منها وعذلها . لكنه عليه الصلاة والسلام ـ كما هو دأبه مع أصحابه من عظيم حلمه معهم واتساع صدره لهم ورحمته بهم وشفقته عليهم ـ سكت عن حديث الاعتذار أوالعتاب إيماءً إلى أنه لايغضب لنفسه ، ولفت انتباهها إلى ما هو الأولى بحالها ، والأعنى بشأنها ، والأنفع لها من إرشادها إلى أن الأجدر بالمؤمن في مثل تلك الحالة هو التحلي بالصبر عند نزول المصيبة إيماناً واحتساباً ، فوقع أسلوب الحكيم هنا أبلغ مواقعه من نفوس السامعين .

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ . فقَالَ: "سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ" . قالوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ ؟ يا رسُولَ اللهِ . قالَ: "الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً والذَّاكِرَاتُ" [١] .

ففي آخر الحديث سؤال وجواب ؛ خرجه الطيبي على أنه من قبيل الأسلوب الحكيم . ونقل أوجهاً ذكرها العلماء في معنى " المُفَرِّدُون"

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ـ حديث ٢٦٧٦ : (١٧ / ٤) . وسنن الترمذي : كتاب الدعوات ـ حديث ٣٥٩٦ : (٥ / ٥٧٧) . ومسند أحمد : حديث ٩٣٣٢ : (١٥ / ١٩٢) .

أنسبها أن " المُفرّدِ : من فَرَّدَ : إذا اعتزل الناس وتخلَّى للعبادة ، فكأنه فرَّد نفسه بالتبتل إلى الله تعالى " [١] .

قال الطيبي : " ولذلك فسّر بقوله : (الذاكرون الله) : أي : سبقوا بنيل الزلفى ، والعروج إلى الدرجات العُلَى . وإنما قالوا : (ما المفردون) ولم يقولوا : من هم ؟ لأنهم أرادوا فسْر[٢] اللفظ وبيان ما هو المراد منه ، لا تعيين المتصفين به وتعريف أشخاصهم ، فعدل رسول الله ﷺ في الجواب عن بيان اللفظ إلى حقيقة ما يقتضيه ؛ توقيفاً للسائل بالبيان المعنوي على المعنى اللغوي إيجازاً ، فاكتفى فيه بالإشارة المعنوية إلى ما استبهم عليهم من الكناية اللفظية..[٣] .

.. وأما جواب رسول الله ﷺ عن قولهم (ما المفردون ؟) بقوله :

(الذاكرون الله كثيراً) : فمن الأسلوب الحكيم الوارد على سبيل الاستطراد ، أي :

دَعُوا سؤالكم هذا ، لأنه ظاهر مكشوف ، واسألوا عن السابقين إلى الخيرات ، المتبتلين إلى الله تعالى بمداومة الذكر، المفردين لله بالذكر عمن سواه " [٤] .

---

(١) الكاشف : (٥ / ١٧٢١) .

(٢) الفَسْرُ : البيَان . وبابه ضَرَبَ . وهو مثل التفسير . (مختار الصحاح : فسر) .

(٣) أي : الكناية بلفظ " المفردون" عما يلزم من معناه اللغوي من التبتل إلى الله تعالى .

(٤) الكاشف : (٥ / ١٧٢١ ، ١٧٢٢) .

وإذن فالمفهوم من سياق هذا النص الشريف أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم لما سمع منه ﷺ " سِيروا هذا جُمدان ، سبق المفردون" استشكلت عليه لفظة

(المُفرِدون) خصوصاً بعد سماعهم الأمر بالسير، والإشارة إلى هذا الجبل المذكور، فلربما تبادر إلى الذهن أن معنى الإفراد : اعتزال الناس والتبتل إلى الله ، أو أنه الانقطاع عن الانشغال بأعراض الدنيا والخلوة للتعبد ، أو نحو ذلك مما يحتمله اللفظ ولذا سألوه ﷺ ليوضح لهم المراد منه . وكان هذا التوضيح لمعنى الكلمة هو ما يترقبونه وينتظرونه في الجواب . لكن جوابه الشريف ﷺ وقع على خلاف ما يترقبون ، بل صاغه على ما يقتضيه أسلوب الحكيم من لفت أنظارهم إلى ما هو الأمثل والأجدر بعنايتهم والأولى باهتمامهم ، وهو ما يقتضيه هذا اللفظ ويستلزمه حيث جعله كناية عن الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، فيكون تنويهاً بفضلهم ، وأن إفرادهم لله تعالى بالذكر على كل حال أنزلهم منزلة السابقين المقربين ، وفيه إرشاد إلى أن ذكر الله عز وجل من أعظم القربات .

وفيما روي عن عبد الله بن بُسْر قال : "جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النبِيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ فقَالَ: "طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ" . قالَ: يا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قالَ: "أَنْ تُفَارِقَ الدُّنْيَا وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ" [١] .

---

(١) رواه الترمذي في سننه : كتاب الدعوات ـ باب ما جاء في فضل الذكر : حديث ٣٣٧٥ : (٥ / ٤٥٨) .

=

قال الطيبي : " قوله (طُوبَى) قال الشارحون : لمّا كان السؤال عمّا هو غيب

لا يعلمه إلا الله تعالى ؛ عدل عن الجواب إلى كلام مبتدأ يشعر بأمارات تدل على المسئول عنه ، وهو طول العمر مع حسن العمل ، فإنه يدلّ على سعادة الدارين ، والفوز بالحسنيين . وأقول : (طُوبَى) كلمة إنشاء ، لأنها دعاء ، معناها : أصاب خيراً من طالَ عمره وحسن عمله . وكان من الظاهر أن يجاب عنه بقوله : " من طال" . فالجواب من الأسلوب الحكيم ، أي : غير خافٍ أن خير الناس مَن طال عمره وحسن عمله ، بل الذي يهمك أن تدعوله فتصيب من بركته.." [1] .

فقد وجّه الأعرابي إلى النبي ﷺ سؤالين ، والشاهد هنا هو ما تعلق بالسؤال الأول من جوابه الشريف ﷺ الذي جاء على طريقة مشوقة؛ تولّد عنها توجيه السؤال الثاني وقول الشارحين الذي نقله الطيبي رحمه الله : " السؤال عمّا هو غيب لا يعلمه إلا الله " : إنما أدخلوه في دائرة الغيب لأن اختلاف الناس في نياتهم وأعمالهم وتفاوت منازلهم ينبني عليه أن مناط الخيرية فيهم يتنوّع تنوّعاً لا حصر له ، ويتفاوت كثيراً على حسب اختلاف نفوسهم وهممهم ، ولا يحيط بمثاقيل الذر من ذلك إلا العليم بذات الصدور سبحانه وتعالى ، ولذا اقتضت بلاغته ﷺ العدول عن الجواب المترقب هنا ـ وهو ما توقعه السائل من تعيين خير الناس ـ إلى بيان أمارة من أمارات الخيرية وهو طول العمر مع حسن العمل ،

وهو في مسند أحمد : حديث ١٧٦٨٠ : (٢٩ / ٢٢٦) . وشعب الإيمان للبيهقي : حديث ٥١٢ : (١ / ٣٩٣) .

([1]) الكاشف عن حقائق السنن : (٥ / ١٧٣٣ ، ١٧٣٤) .

لينشأ عن ذكر هذه الأمارة سؤال آخر عن أفضل الأعمال ، ومن ثمّ كان لأسلوب الحكيم في ذلك دور تعليمي لايخفى .

وفيما روى عن سلمان رضى الله عنه قال : "قال بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ. وهُوَ يَسْتَهْزِئُ.: إِنِّي لَأَرَى صَاحِبَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ حَتَّى الْخِرَاءَةَ . قلتُ: أَجَلْ ! أَمَرَنَا أَنْ لَا نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ ، وَلَا نَسْتَنْجِيَ بِأَيْمَانِنَا ، وَلَا نَكْتَفِيَ بِدُونِ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ لَيْسَ فِيهَا رَجِيعٌ وَلَا عَظْمٌ "[1] .

قال الطيبي : " قوله (حتى الخِرَاءَة) : مكسورة الخاء ممدودة : التخلي والقعود عند الحاجة . وأكثر الرواة يفتحون الخاء ويقصرونها . الجوهري[2] : هي بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم . وأما جواب سلمان فهو من باب الأسلوب الحكيم ، لأن المشرك لما استهزأ كان من حقه أن يهدّد ، أو يسكت عن جوابه ، لكنه رضي الله عنه ما التفت إلى ما قال وما فعل من الاستهزاء ، وأخرج الجواب مخرج المرشد الذي يلقن السائل المُجدّ ، يعني : ليس هذا مكان الاستهزاء ، بل هو جدّ وحق ، فالواجب عليك أن تترك العناد ، وتلزم الطريق المستقيم ، والمنهج القويم بتطهر ظاهرك وباطنك من الأرجاس والأنجاس .

وقريب منه قوم صالح عليه السلام ، سألوا مؤمنيهم مستهزئين :

([1]) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الطهارة : باب الاستطابة : (٣ / ١٥٢) . وفسَّر الرجيع : بأنه الروث . وسنن أبي داود : كتاب الطهارة . باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجه (١ / ٢) . وسنن ابن ماجة : كتاب الطهارة وسننها . حديث رقم ٣١٦ : (١ / ١١٥) . وسنن النسائي : كتاب الطهارة . حديث رقم ٤١ : (١ / ٣٨ ـ بتحقيق عبد الفتاح أبو غدة) .

([2]) الصحاح : (خرأ) .

(أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِن رَبِّه)[١]. أجابوا :(قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)[٢]. أي إرساله أمر معلوم مكشوف لا كلام فيه ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به ، فإنا آمنّا به ، وامتثلنا ما أمر به وانتهينا عمّا نهى عنه " [٣] .

وفى حديث طويل رواه أبوهريرة رضى الله عنه، جاء فيه أن أسيراً جيء به من نجد يقال له: ثمامة بن أثال. سيد أهل اليمامة. فربط فى سارية من سوارى المسجد وفى اليوم الثالث أطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وأراد العمرة قال أبوهريرة رضى الله عنه: "فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت ؟ فقال : لا ، ولكنى أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم" [٤] .

قال الطيبي : " قوله : (فقال : لا) : فإن قلتَ : كيف قال "لا" وهو قد خرج من الشرك إلى التوحيد ؟ قلتُ : هو من الأسلوب الحكيم ، كأنه قال : ما خرجت من الدين لأنكم لستم على دين فأخرج منه . بل استحدثت دين الله ، وأسلمت مع رسول الله ﷺ لله ربّ العالمين " [٥] .

---

(١) الأعراف : الآية ٧٥ .

(٢) الأعراف : الآية ٧٥ .

(٣) الكاشف : (٣ / ٧٨٢ ، ٧٨٣) .

(٤) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب وفد بني حنيفة ـ حديث ٤٣٧٢ : (٥ / ١٧٠) . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه (١٢ / ٨٧ ـ ٨٩) .

(٥) الكاشف : (٩ / ٢٧٤١) .

ويبدو لنا من سياق الحديث أن ثمامة اعتنق الإسلام عن قناعة تامة ، وآمن بأنه الدين الحق ، وعرف أن ما كان عليه من المعتقدات الفاسدة والعادات الجاهلية المرذولة ؛ لايصح أن يكون ديناً يدين به عاقل . فعندما سأله ذلك المشرك المكيّ :

" أصبوتَ؟" قال : " لا ، ولكني أسلمت...إلخ". قال الجوهري : " صَبَأَ الرجلُ صُبُوءاً: إذا خرجَ من دينٍ إلى دين . قال أبوعبيدة : صبأ من دينه إلى دين آخر كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها " [١] .

وقد توقع السائل ـ لمّا عرف أن ثمامة أسلم ـ أن يجيبه بإثبات صُبُوئِه ، لكن الردّ كان صادراً عن قلب وقَرَ فيه الإيمان ، وسقط من اعتباره دين المشركين ، وهو

ما وضحه الطيبي بقوله : " ما خرجت من الدين ، لأنكم لستم على دين فأخرج منه "اهـ فكان لجواب ثمامة . رضي الله عنه . على وجازته ؛ موقعاً من البلاغة لطيفاً دلّ أسلوب الحكيم فيه على اعتزازه بدينه ، وازدرائه للدين الباطل .

وفيما روى عن البراء بن عازب قال : " اعتمَرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة ، فأبَى أهلُ مكة أن يدعوه يدخلُ مكة حتى قاضاهم على أن يدخلَ - يعني من العام المقبل - يقيمُ بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : "هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ اللهِ" . قالوا : لا نقرُّ بها . فلو نعلمُ أنك رسولُ اللهِ ما منعناك ، ولكن أنت محمدُ بن عبدِ اللهِ . فقال : " أنا رسولُ اللهِ ، وأنا محمدُ بن عبدِ اللهِ " . ثم قال لعلي بن

---

(١) الصحاح : (صبأ) .

أبي طالب: "امْحُ رَسُولَ اللَّهِ" . قال: لا واللَّهِ لا أَمْحُوكَ أَبَداً . فأَخَذَ رسُولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم ـ وليس يُحسِنُ يَكْتُبُ ـ فكَتَبَ: "هَذَا ما قاضَى عَلَيهِ محمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ، لا يَدخُلُ مَكَّةَ بالسِلاحِ إلا السَيفَ فى القِرَابِ وأن لا يَخرُجَ مِن أَهْلِهَا بِأَحَدٍ إن أَرادَ أَن يَتْبَعَهُ، وأَن لا يَمنَعَ مِن أَصحابِهِ أَحَداً إن أَرادَ أَن يُقِيمَ بِهَا" [١] .

قال الطيبي : " قوله (وأنا محمد بن عبد الله) هو من الأسلوب الحكيم ، يعني :

استدراككم بقولكم : أنت محمد بن عبد الله ، بدل قولي : محمد رسول الله ؛ يؤذن بأن الجمع بينهما غير مستقيم . وليس كذلك ، لأن الرسالة تثبت بدعواها ، وإثبات المعجزة ، وقد حصل ذلك . وهو كقول الرسل : ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [٢] **جواباً عن قولهم: (مَا أَنْتُمْ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنَا)**[٣]..." [٤] .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الصلح : حديث ٢٦٩٩ : (٣ / ١٨٥) . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب صلح الحديبية : (١٢ / ١٣٥) . وسنن أبي داود : كتاب الجهاد ـ باب في صلح العدو : (٢ / ٧٧ ، ٧٨) وسنن الدارمي : كتاب السير ـ حديث ٢٥٠٧ : (٢ / ٣١٠ ـ دار الكتاب العربي) . ومسند أحمد : حديث رقم ١٨٦٣٥ : (٣٠ / ٥٩٤)

(٢) سورة يس : الآيتين (١٥ ، ١٦) .

(٣) سورة يس : الآيتين (١٥ ، ١٦) .

(٤) الكاشف عن حقائق السنن : (٩ / ٢٧٩١) .

ومما جاء في المشكاة : عن أبي رزين قال: "قلتُ: يا رسول الله أين كان ربُّنا قبل أن يخلُق خَلْقَهُ؟ قال: "كان في عَماءٍ، ما تحتَهُ هَواءٌ، وما فوقَهُ هَواء، وخَلَقَ عَرْشَهُ على الماء" [١] .

ولما كان الجواب عن السؤال الوارد هنا يرتكز على قوله : " كان في عماء" فقد توقف بحث الأسلوب على بيان المعنى المراد به .

وفي معنى كلمة "عماء" اختلف العلماء ، ونقل الطيبي أقوالاً لهم منها : قول الزمخشري في الفائق : " كان في عماء : هو السحاب الرقيق . وقيل : السحاب الكثيف المطبق . وقيل : شبه الدخان يركب رءوس الجبال. وعن الجرميّ: الضباب. ولابد في قوله : " أين كان ربنا" من مضاف محذوف كما حذف من قوله :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[٢] **ونحوه** " [٣] .

وقول ابن الأثير: العَمَاء بالفتح والمدّ : السحاب . قال أبوعبيدة : لا ندري كيف كان ذلك العَمَاء ؟ وفي رواية "عمى" بالقصر . ومعناه : ليس

---

(١) رواه الترمذي في الجامع الصحيح : كتاب تفسير القرآن ـ حديث ٣١٠٩ : (٥ / ٢٨٨) . وابن ماجة في مقدمة سننه : باب فيما أنكرت الجهمية ـ حديث ١٨٢: (١ / ٦٥). والإمام أحمد في مسنده: حديث ١٦١٨٨.

(٢) سورة البقرة : ٢١٠ .

(٣) الفائق في غريب الحديث ، للزمخشري : (عما) .

معه شيء . وقيل : هو كل أمر لا تدركه عقول بني آدم ، ولا يبلغ كنهه الوصف والفطن " اهـ [١] .

وفسَّرَ الطيبي ما قدَّرَه الزمخشري من المضاف المحذوف بقوله :

" فيكون التقدير: أين كان عرش ربنا ؟ يدلّ عليه قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ)[٢]" ، ثم قال معلقاً على ذلك : " أقول : لم يفتقر إلى التقدير، ولابد لقوله : (في عَمَاء) بالمد ؛ من التأويل حتى يوافق الرواية الأخرى : "عمى" مقصوراً ،

وأما ما ورد في الصحاح عن عمران بن الحصين رضي الله عنه : " كانَ اللهُ ولمْ يَكُنْ شَيْءٌ وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاء " [٣] . وذلك أن قوله : (ما تحته هواء وما فوقه هواء) جاء تتميماً وصوناً لما يفهم من قوله : (في عماء) من المكان ، فإن الغمام المتعارف محال أن يوجد بغير هواء ؛ فهو نظير قوله : " كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِين" [٤]..

---

(١) النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير : (عما) .

(٢) سورة هود : ٧ .

(٣) رواه البخاري في الصحيح : كتاب بدء الخلق ـ حديث رقم ٣١٩١ : (٤ / ١٠٥) . وابن حبان في صحيحه : كتاب التاريخ . حديث رقم ٦١٤٢ : (١٤ / ١٠ بتحقيق شعيب الأرنؤوط) . والبيهقي في شعب الإيمان : باب القول فيمن يصح إيمانه أو لايصح : (١ / ١٢٧ . دار الكتب العلمية) .

(٤) تمامه ـ كما جاء في شرح السنة ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال : (المُقْسِطونَ عِندَ اللهِ على مَنابِرَ مِنْ نُور على يَمِينِ الرَّحمَن ، وكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ، هُمُ الذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِم وأَهْلِيْهِم ومَا وُلُّوا) . (شرح السنة للإمام البغوي : كتاب العدة : ١٠ / ٦٤) . وأراد بالنظير أنه مثله في قصد تنزيه الله سبحانه عن كل نقص وإثبات ما يليق بكماله . قال ابن فورك الأصبهاني في بيان =

فالجواب من الأسلوب الحكيم . سئل عن المكان ، فأجاب عن ان لا مكان ، يعني : إن كان هذا مكاناً فهو في مكان . وهو إرشاد له في غاية اللطف " [١] .

وأيَّد الطيبي هذا المعنى بما نقله عن القاضي البيضاوي ، وهو قوله : " المراد به ما لا تقبله الأوهام ولا تدركه الفطن والأفهام . عبَّر به عن عدم المكان بما لا يدرك ولا يتوهم ، وعن عدم ما يحويه ويحيط به بالهواء ، فإنه يطلق ويراد به الخلاء الذي هو عبارة عن عدم الجسم ، ليكون أقرب إلى فهم السامع ، ويدل عليه أن السؤال كان عما قبل أن يخلق خلقه ، فلو كان العماء أمراً موجوداً لكان مخلوقاً ، إذ ما من شيء سواه إلاوهو مخلوق خلقه وأبدعه ، فلم يكن الجواب طبق السؤال"[٢].

وفي حديث طويل رواه أبوهريرة رضي الله عنه ؛ تناول مانعي زكاة الذهب والفضة وما يواجهونه من العذاب يوم القيامة ، وكذا مانعي زكاة الإبل والبقر والغنم ، سُئِلَ ﷺ عن شأنهم ومصيرهم :

الحديث الأخير : " عرَّفَنا ﷺ كمال صفة الله عز وجل وأنه لا نقص فيها ، وأن ما وصف به من اليدين ليس كما وصف به ذو الجوارح التي تنقص مياسره عن ميامنه.. فذكر الفضل والنعمة لأن جميع ما بيديه جلّ وعزّ من مننه فضل وطول مبتدأ ، فمن منفوع ينفعه ، ومن مدفوع عنه يحرسه .." . (مشكل الحديث وبيانه : لابن فورك الأصبهاني : ص ١١١ ـ ط عالم الكتب) . وفي حديث المشكاة أيضاً أريد تنزيه الله ﷻ عن الجهة والمكان والتحيز الذي هو من شأن خلقه ، فعبّر بما يفيد أنه لا شيء فوقه ولا شيء تحته . والله أعلم .

(١) الكاشف : (١١ / ٣٦٢٣) .

(٢) المصدر والموضع نفسه .

" . . قيل : يا رسول الله : فالإبل ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها ، ومن حقها حلبها يوم وردها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت ،

لا يفقد منها فصيلا واحداً ، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد . . . " إلى أن . . " قيل : يا رسول الله : فالخيل ؟ قال : الخيل ثلاثة : هي لرجل وزر ، وهي لرجل ستر ، وهي لرجل أجر . فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رياء وفخراً ونواءً [1] على أهل الإسلام ، فهي له وزر . وأما التي هي له ستر فرجل ربطها في سبيل الله ، ثم لم ينس حق الله في ظهورها ولا رقابها ، فهي له ستر . وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج وروضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات ، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات ، ولا تقطع طولها فاستنت شرفاً أو شرفين إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات . . " الحديث [2] .

---

(١) النِوَاءُ بكسر النون : العداوة . يقال : ناوَأْتُ الرجلَ مُناوَأَةً ونِوَاءً : عادَيْتُهُ . (الصحاح : نوأ) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الزكاة ـ باب إثم مانع الزكاة : حديث ٩٧٨ : (٧/ ٦٤ ـ ٦٧) .

وأبو داود في سننه : كتاب الزكاة ـ باب في حقوق المال : (١ / ٣٨٥) .

والنسائي في سننه : كتاب الزكاة باب التغليظ في حبس الزكاة : حديث ٢٤٤٢ (٥ / ١٢) .

قال الطيبي : " قوله (فالخيل ثلاثة) : فإن قلتَ : الجوابان السابقان مطابقان للسؤالين [١] ، لأن الأسئلة عن حقوق الله تعالى في الأجناس ، ووجوب الزكاة فيها ،

فأين المطابقة في السؤال الثالث؟ [٢] . قلتُ : هو وارد على الأسلوب الحكيم . وفي التوجيه وجهان : أحدهما على مذهب الشافعي رضي الله عنه ، أي : دع السؤال عن الوجوب ، إذ ليس فيه حق واجب ، ولكن سل عن اقتنائها عمَّا يرجع إلى صاحبها من المضرة والمنفعة .

وثانيهما : على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ، أي : لا تسأل عمّا وجب فيها من الحقوق وحده ، بل سل عنه وعمّا يتصل بها من المنفعة والمضرّة إلى صاحبها.." [٣].

والملاحظ أن الطيبي قد خرّج الجواب هنا على وجهين : الأول ـ على نحو ما وضحه ـ يندرج تحت الضرب الأول من الأسلوب الذي هو موضوع دراستنا في هذا المبحث .

وأما الوجه الثاني الذي يوافق معنى وجوب الزكاة في الخيل ـ كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة ـ وبناءً عليه يكون الجواب من قبيل الضرب الثاني من الأسلوب الحكيم عند الطيبي ـ كما تكلم عليه في مواضع من هذا الكتاب ـ فهو ما ورد فيه جواب السائل مع زيادة على الجواب تنفع السائل ، وتناسب حاله . وهو ما ألمح إليه بقوله آنفاً : ".. بل سل عنه وعمّا يتصل بها من المنفعة والمضرة إلى صاحبها " . وهذا الضرب هو ما سنبحث نماذجه بعون الله تعالى في المبحث التالي . والله الموفق .

---

(١) يعني السؤال عن الإبل ، والسؤال عن البقر والغنم ؛ الواردين في الحديث ، وجوابهما .

(٢) وهو السؤال عن الخيل ، وجوابه .

(٣) الكاشف : (٥ / ١٤٧٣) .

المبحث الثاني

الضرب الثاني (الزيادة في الجواب بما ينفع السائل)[١]

ونعني به ما خرّجه الطيبي على أنه من هذا الأسلوب لزيادة وقعت في جواب السائل بعبارة أوأكثر ، مما هو أجدر بقصده وأعنى بحاله ، وأكثر نفعاً له .

روي في **المشكاة** عن معاذ رضى الله عنه قال : " قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار . قال صلى الله عليه وسلم : " لقد سألت عن أمر عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت " ثم قال : " ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل " ثم تلا : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)[٢] حتى بلغ :

(يعملون)[٣] ثم قال : " ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ "

قلت : بلى يا رسول الله قال : " رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد " . ثم قال : " ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ " قلت بلى يا نبي الله ! فأخذ بلسانه فقال : " كف عليك هذا " فقلت : يا نبي الله ! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟

---

(١) لم يضع الإمام الطيبي هذا العنوان ولكننا استفدناه مما قاله في شرحه للأحاديث ، كما سيتبين إن شاء الله .

(٢) سورة السجدة : ١٦ ، ١٧ .

(٣) سورة السجدة : ١٦ ، ١٧ .

قال: "ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذ ! وهَلْ يُكِبُّ النّاسَ فِي النّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"[١] .

وظاهر أن جواب سيدنا رسول الله ﷺ هنا قد توالت فيه الفوائد وتتابعت التوجيهات ، ولم يقتصر على مجرد إجابة السائل الذي سأل عن عمل يُدخِله الجنة ويُباعده من النار ، ، وقد مهَّد ﷺ لذلك في المقدّمة بقوله : " لقد سألت عن أمر عظيم.." .

وسلك ﷺ بالسائل ذلك الطريق التعليمي الرشيد المتمثل في طرح الأسئلة المشوّقة للمعرفة ، ثم الإجابة عنها ، كما يظهرفي قوله صلى الله عليه وسلم: " ألا أدلّك ؟" .. " ألا أخبرك ؟" .. واستعمال الاستفهام بغرض التشويق للجواب هو منهج قرآني بليغ في التعليم والتوجيه ، يشهد لذلك قول الله تعالى :

(يَا أَيُّها الذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم . تُؤمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[٢].

وقد تناول الطيبي بالشرح والتحليل التفاصيل الدقيقة التي اشتمل عليها هذا الحديث الشريف في سياقه ، مبيّناً أثر ما تحلَّت به عباراته من الأسلوب البديعي المعروف بـ"الترقي" في دلالات الحديث ، وهو ـ

---

(١) رواه الترمذي في سننه : كتاب الإيمان : باب ما جاء في حرمة الصلاة : حديث ٢٦١٦ : (٥ / ١٢) . وابن ماجة في سننه : كتاب الفتن : حديث ٣٩٧٣ (٢ / ١٣١٤) . و أحمد في المسند :(٥ / ٢٣١ ـ ٢٣٧) .

(٢) سورة الصف : ١٠ ، ١١ .

كما عرفه ـ : " أن يُذكَر معنىً ثم يُردف بما هو أبلغ منه " [١] . وبناءً على ذلك فقد تمّ توظيف هذا الصبغ البديعي في أحسن مواقعه حتى أدى دوره في التدرج بالسائل في مدارج الفوائد والإرشادات من بليغ إلى أبلغ ، مما أدى بدوره إلى الزيادة النافعة الشافية في جواب السائل .

وسأقتطف من شرح الطيبي بعض التفاصيل التي توضح الترقي في سياق جواب السائل ههنا ، لأن تحليله لبعض التراكيب في عبارات الحديث يعين على استيعاب هذا الترقي الذي ءازر الجواب وعضّد الأسلوب الحكيم فيه ، على نحو ما توصّل إليه في نتيجة تحليله ، حيث صرّح بأن الزيادة في الجواب من الأسلوب الحكيم ،

إذ اشتملت على توجيهات تهمّ السائل وتروي أُوَامَه ، مؤيداً ما ذهب إليه بكلام الراغب الأصفهاني حول سداد تلك الطريقة في المنهج التعليمي .

يقول الطيبي رحمه الله : " قوله (ألا أدلك برأس الأمر وعموده ؟): الذِرْوَة بكسر الذال وضمها : أعلى الشيء . وذروة الجبل : أعلاه .. والسَنام بالفتح : ما ارتفع من ظهر الجمل .. قوله (رأس الأمر الإسلام): كلمتا الشهادة ، وأراد بالأمر هنا أمر الدين ، يعني : ما لم يقرّ العبد بكلمتي الشهادة لم يكن له من الدين شيء أصلاً ، وإذا أقرّ بكلمتي الشهادة حصل له أصل الدين إلا أنه ليس له قوة وكمال ، كالبيت الذي ليس له عمود ، فإذا صلّى وداوَمَ على الصلاة قوِيَ دينه ، ولكن لم يكن له رفعة وكمال ، فإذا جاهد حصل لدينه الرفعة...

([١]) التبيان في البيان : (ص ٤٩١) .

وقلت : عدَّى (أدلُّك) في هذه القرينة بالباء ، وهو يُعَدّى بـ"عَلَى" مضمناً معنى الإخبار، أي : هل أخبرك برأس الأمر؟ وإنما عدل ليجمع بين المعنيين . قال صاحب الكشاف [١] في قوله : (وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُم)[٢] : وإنما عدِّي بـ"عن" لتضمين "عدا" معنى : نبا ، وعلا ؛ في قولك : نبَتْ عنه عينه. وعَلَتْ عنه عينه : إذا اقتحمته ولم تتعلق به . والغرض فيه إعطاء مجموع معينين ، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذّ .

فإن قلتَ : لِمَ خصَّص هذه القرينة بالباء[٣] والأولى بعَلَى ؟ قلتُ : هذه القرينة أجمع وأشمل ، لأن المعنيّ بالأمر الدين ، وهو مشتمل على أبواب الخير ، وعلى ما سبقه من قوله (تعبد الله..) إلى آخره ، ولهذا أعاد الباء في القرينة الثالثة [٤] ،

وأكَّدَها بـ" كله" لكونها أجمع منها . وهذا الترقي ينبهك على جواز الزيادة في الجواب ، كما في قوله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ)[٥]. وهو من أسلوب الحكيم . قال الراغب : السؤال ضربان : جدلي ، وتعليمي . وحق الأول مطابقة الجواب من غير زيادة ونقص .

---

(١) الكشاف : (٢ / ٤٨١) .

(٢) سورة الكهف : (٢٨) .

(٣) يعني في قوله : " ألا أدلّك برأس الأمر وعموده.." مع أن قبلها : " ألا أدلّك على أبواب الخير" .

(٤) وهي عبارة : " ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ " .

(٥) سورة البقرة : ٢١٥ .

والثاني حقه أن يتحرى المجيب الأصوب ، كالطبيب الرفيق يتوخى ما فيه شفاء العليل ؛ طلبه أم لا " [١] .

وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري قال : " خَرَجَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطرٍ إلى المُصَلَّى ، فَمَرَّ عَلى النِساءِ فقال : " يا مَعْشَرَ النِساءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ " . فَقُلْنَ : وَبِمَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قال : " تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ ، ما رَأَيْتُ مِنْ ناقِصاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ " . قُلْنَ : ما نُقْصانُ دِينِنا وَعَقْلِنا يا رَسُولَ اللهِ ؟ قال : " أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ ؟ " . قُلْنَ : بَلَى . قال : " فَذَلِكَ مِن نُقْصانِ عَقْلِها " قال : " أَلَيْسَ إِذَا حاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ ؟ " قُلْنَ : بَلَى . قال : فَذَلِكَ مِنْ نُقْصانِ دِينِها " [٢] .

قال الطيبي : "...وكُفْرَانُ العَشِير : جَحدُ نعمة الزوج عليهنّ ، واستقلال ما كان منه . والحزم ضبط الرجل أمره وأخذه بالشقة . و(أُرِيتُكُنّ) بمعنى أُخْبِرْتُ وأُعْلِمْتُ بأنكنّ أكثر أهل النار.. و(من) في قوله (من ناقصات) مزيدة استغراقية لمجيئها

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن : (٢ / ٤٨٤ ـ ٤٨٧) .

(٢) صحيح البخاري : كتاب الحيض : باب ترك الحائض الصوم ـ حديث ٣٠٤ : (١ / ٦٨) . وصحيح مسلم: كتاب الإيمان : باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات : (٢ / ٦٥ ، ٦٦) . وسنن الترمذي : كتاب الإيمان : باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه : حديث ٢٦١٣ (٥ / ١٠) . وشعب الإيمان للبيهقي : باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه (١ / ٦٢) .

بعد النفي ، ومن ثم قيل : (من إحداكنّ) ، و(من) فيه متعلق بـ(أذهب) ، والمفضل عليه مفروض مقدر[١]. ويحتمل أن يكون (من) بياناً للناقصات على سبيل التجريد ، كقولك : رأيت منك أسداً . جرَّد من (إحداكنّ) ناقصات ، ووصفها بالجمع على طريقة (شِهَاباً رَصَداً)[٢]. و(أذهَبَ) لمطلق الزيادة ، صفة موصوف محذوف ، أي ما رأيت أحداً . و(أذهَبَ) صفة (أحد) . و(ذلك) إشارة إلى الحكم المذكور، والكاف فيه للخطاب العام ، وإلا لقال : " ذلكن" ، لأن الخطاب مع النساء... فالجواب من الأسلوب الحكيم ، لأن قوله : (ما رأيت من ناقصات عقل ودين) إلى آخره ؛ زيادة . فإن قوله: (تكثرن اللعن وتكفرن العشير) جواب تامّ " [٣].

والمتأمل لشرحه لهذه العبارة التي اعتبرها زيادة على الجواب الأصلي ـ مع ما فيها من تنبيه للنساء على تلك السجية فيهن التي تلتبس على أكثر الناس وإنذار للجميع وتحذير من أن يتمادوا في الغفلة عن تلك الحال ـ يلاحظ أن الطيبي قد ألقى الضوء في تحليله لتراكيبها على اللطائف التي أدّت بالسياق إلى هذه الزيادة التنبيهية الإرشادية التي جمعت فأوعت ، وأشار إلى ما تحتمله الألفاظ من أكثر من وجه .

فحرف الجر "من" في قوله (من ناقصات) زائد لإفادة استغراق جميع ما يوصف بهذا الوصف ، لأنه وقع في سياق النفي "ما رأيت" .

---

(١) والتقدير : ما رأيت من ناقصات عقل ودين أحداً أذهب للب ... إلخ .

(٢) سورة الجن : من الآية ٩ . قال الزمخشري : الرَصَد مثل الجرس : اسم جمع للراصد على معنى : ذوي شهاب راصدين بالرجم ، وهم الملائكة.." . (الكشاف : ٤ / ١٦٨) .

(٣) الكاشف : (٢ / ٤٦٥ ـ ٤٦٨) .

واسم التفضيل (أذهَبَ) عبّر به لإفادة مطلق الزيادة في هذا الوصف ، أي : إذهاب ألباب الرجال . لأن الأصل في " أَفْعَل" التفضيل أن يدلّ على ثلاثة أمور : " اتصاف من هو له بالحدث الذي اشتقّ منه ، وبهذا كان وصفاً . ومشاركة مصحوبه في تلك الصفة. ومزية موصوفه على مصحوبه فيها..ولكن قد يخلع عنه المعنى الثاني . وهو المشاركة . وقيد المعنى الثالث . وهو كون الزيادة على مصاحبه . فيكون للدلالة على الاتصاف بالحدث ، وعلى الزيادة مطلقاً لامقيدة ،وذلك نحو: يوسف أحسن إخوته " [١]

وذكر الطيبي أن في قوله (من إحداكن) احتمالين :

الأول : أن يكون متعلقاً بأفعل التفضيل (أَذْهَبَ) .

والثاني : أن تكون "من" فيه بيانيه ، فيكون بياناً لـ(ناقصات عقل ودين) ؛ على سبيل التجريد ، أي أنه جرّد من (إحداكنّ) ناقصات عقل ودين ، قياساً على قولك : رأيت منك أسداً .

وقد عرَّف التجريد في كتابه " التبيان" بقوله : " هو أن ينتزع من متصف بصفةٍ آخرُ مثله فيها ، مبالغة في كمالها فيه " [٢] . فكأنه انتزع من " إحداكن" هنا (ناقصات عقل ودين) ، مبالغة في اتصافها بالنقصان.

ولكني أرى أن هذا الاحتمال الثاني بعيد ، لوقوع الفصل الطويل بالألفاظ بين (ناقصات) وبين (من إحداكن) ، ولأن اسم التفضيل (أذهب) أحوج إلى هذا المتعلّق من حيث المعنى هنا ، إذ التقدير: ليس شيء

([١]) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي : (٦ / ١٧٩ ـ دار صادر) باختصار .

([٢]) التبيان في البيان : (ص ٤٢٤) .

أذهب للألباب من إحداكن للبّ الرجل الحازم . ولأن المعنى المراد شيوع هذا الوصف وشموله لعموم النساء ، ولا معنى لتجريده من إحداهن على جهة الخصوص . لذا أرجّح الوجه الأول ، وهو أن (من إحداكن) متعلق بـ(أذهب) . والله أعلم .

والحاصل أن إجابة سيدنا رسول الله ﷺ عن سؤال النساء في الحديث قد اشتملت على تنبيه وتوجيه هو الأهم لحال السائلات ، والأعنى بشأنهن وزوّدهن بذلك فوق أصل الجواب الذي أشار الطيبي إليه ، ومن ثمّ صرّح بأنه من الأسلوب الحكيم .

وفيما روي عن عمروبن العاص رضي الله عنه قال :

" أَتَيْتُ النبِيَّ ﷺ فقُلتُ : أُبْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ ، فَبَسَطَ يَمِيْنَهُ ، فَقَبَضْتُ يَدِي ،

فقالَ : " مالَكَ يا عمرو ؟" قلتُ : أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ ، فقَالَ :

"تَشْتَرِطُ ماذَا ؟"قلتُ: أَنْ يُغفَرَلِي . قالَ: "أَمَاعَلِمْتَ يَاعَمْرو أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ مَاكَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَاكَانَ قَبْلَهَا ، وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَاكانَ قَبْلَهُ"[1] .

طلَبَ سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه ـ فيما سماه اشتراطاً ـ أن يُغْفَرَ له ما تقدّم من خطاياه ، فلم يقتصر جواب سيدنا رسول الله ﷺ على تبشيره بالمغفرة عند إسلامه ، بل فتح له باب الرجاء في رحمة

([1]) رواه الإمام مسلم في صحيحه : كتاب الإيمان : باب كون الإسلام يهدم ما قبله (٢ / ١٣٧) ، وابن خزيمة في صحيحه : كتاب المناسك : حديث ٢٥١٥ : (٤ / ١٣١ ط المكتب الإسلامي) ، وابن الأثير في جامع الأصول : حديث ٦٦٥٤ : (٩ / ١٠٤) .

الله ، وبسط له القول ببيان المبشرات بثواب الأعمال الصالحة ، مما يطمئن قلبه ، ويهدئ روعه الوَجِلَ من خوف عذاب الله .

وقد بيّن الطيبي أن هذا الجواب من الأسلوب الحكيم ، لأنه لم يقتصر على المطلوب فقط كما بيّنا ، ثم كشف عن وجوه من البلاغة في عبارة هذا الجواب ، ونظراً لأن تلك الوجوه المجتمعة في سياق واحد تخدم الأسلوب الحكيم وتؤازره ،

أونقول ـ إن صح التعبير ـ : يعتمد عليها الأسلوب الحكيم في هذا المقام ؛ فإنه يجدر بنا التنصيص عليها من عبارة الشارح ، لاكتشاف مدى أثرها في النظم الشريف :

قال الطيبي رحمه الله : ".. نتكلم في الحديث بحسب ما تقتضيه البلاغة ، وذلك أن فيه وجوهاً من التوكيد يدلّ على أن حكم الهجرة والحج حكم الإسلام :

أحدها : أنه من الأسلوب الحكيم ، فإن غرض عمرو من إبائه عن المبايعة ما كان إلا حكم نفسه في إسلامه ، وحديث الهجرة والحج زيادة في جوابه ، كأنه قيل : لا تهتم بشأن الإسلام وحده ، وأنه يهدم ما كان قبله ، فإن حكم الهجرة والحج كذلك .

وثانيها : أن العطف في علم المعاني يستدعي المناسبة القوية بين المعطوف والمعطوف عليه ، وإلا فيدخل في حكم الجمع بين الأروى والنعام . قال صاحب الكشاف في قوله تعالى :(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ)[١] :

---

(١) سورة آل عمران : ١٨١ .

" عطف (وَقَتْلَهُمُ الأنبِيَاء) على (ما قَالُوا) ليدلّ على أن قولهم : (إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء) [١] في الفظاعة كقتل الأنبياء ، وفي أنه يجري مجرى الذنب السابق كقتل الأنبياء" [٢] .

وثالثها : " أما" فإن الهمزة فيها معنى النفي ، و"ما" نافية ، فإذا اجتمعا دلاّ على التقرير، لاسيما وقد أُتبعا بقوله "علمت" إيذاناً بأن ذلك أمر مقرر لا نزاع فيه ، ولا ينبغي أن يرتاب مرتاب فيما يتلوها .

ورابعها : لفظ " يهدم" فإنه قرينة للاستعارة المكنية ، شبّهت الخصائل الثلاث [٣] في قلعها الذنوب من سنخها [٤] بما يهدم البناء من أصله ؛ من نحو الزلازل والمعاول ، ثم أثبت للإسلام ما يلازم المشبه به من الهدم وينسب إليه ؛ على سبيل الاستعارة التخييلية .

وخامسها : الترقي [٥]: فإن قوله " الحج يهدم ما كان قبله " في أبلغ إرادة المبالغة من الهجرة ؛ لأنه دونها ، فإذا هدم الحج الذنوب فبالطريق الأَولى أن تهدمها الهجرة ، لأنها مفارقة الأوطان والأحبّاء ، وموافقة لنبي الله ﷺ ، وكذا حكم الهجرة مع الإسلام ، وعلى هذا قول المعري [٦] :

---

(١) سورة آل عمران : ١٨١ .

(٢) الكشاف : (١ / ٤٨٤) . والذي حكاه الطيبي هنا مضمون كلامه .

(٣) يعني : الإسلام ، والهجرة ، والحج .

(٤) السِنْخ : بكسرالسين : الأصل . ومن السِنّ : مَنْبِتُه . (القاموس المحيط : سنخ) .

(٥) وعرّفه بقوله : " هو أن يُذكر معنى ثم يُردف بما هو أبلغ منه " . (التبيان : ٤٩١) .

(٦) سقط الزند وضوءه لأبي العلاء المعري : (ص ٤٥ ـ بتحقيق الدكتور السعيد عبادة) .

سَرَى بَرْقُ المعَرَّة بعد وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامةَ يَصِفُ الكَلالا

شَجَى رَكْباً وأفْرَاساً وَإِبِلاً وزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُو الرِحالا " [١] .

وفي حديث جبريل الذي سأل فيه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ؛ قال :

" فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَاعَةِ " قال رسول الله ﷺ :

"مَا المَسْئُولُ عَنها بِأَعْلَمَ مِنَ السَائِل" . قال : فأخبِرْنِي عن أَمَارَاتِها . قال :

"أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَان"

. . ورواه أبو هريرة رضى الله عنه مع اختلاف ، وفيه: "وَإِذَا رَأَيْتَ الحُفَاةَ العُرَاةَ الصُمَّ البُكْمَ مُلُوكَ الأَرْضِ فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلا اللهُ . ثم قَرَأَ : (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ) الآية [٢] . . " [٣] .

قال الطيبي : " قوله (في خمس) أي : علم وقت الساعة داخل في جملة خمس ، وحذف متعلق الجار سائغ شائع ، كما في قوله تعالى: (تِسْعِ آيَات)[٤] أي اذهب إلى فرعون في شأن تسع آيات . ويجوز أن يتعلق بـ" أعلم" ، يعني : ما المسئول عنها بأعلم في خمس، أي في علم الخمس ، فكما عمّ في المسئول عنه أولاً عمَّ في المسئول

---

[١] الكاشف عن حقائق السنن : (٢ / ٤٨٢ ، ٤٨٣) .

(٢) سورة لقمان : ٣٤ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه : كتاب الإيمان . باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان : حديث رقم ٨ : (١ / ١٢٢) . والإمام مسلم في صحيحه : كتاب الإيمان : باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان : حديث رقم ٥٠ (١ / ١٥٧) .

(٤) سورة النمل : من الآية ١٢ . وتمامها : ئنآ كم لج لح لخ لم لهمج مح مخ مم نج ئم .

ثانياً ، أي : لا ينبغي لأحد أن يسأل أحداً في علم الخمس ، لأن العلم بها مختص بالله تعالى . وفيه إشارة إلى إبطال الكهانة والنجامة وما شاكلها .. وإرشاد للأمة ، وتحذير لهم عن إتيان من يدّعي علم الغيب . فإذاً الجواب من الأسلوب الحكيم . أجاب عن سؤاله في ضمن أشياء مهمة لابد من بيانها إرشاداً للأمة ، وتنبيهاً للمعلم عليها . كأنه قيل : سؤالك هذا يقتضي أن لا يقتصر على جواب واحد ، بل يجاب مع هذه الأمور المهمة ، فإن اهتمامها كاهتمامه . أويقال : كان يجب عليك أيها المعلم أن لا تقتصر على سؤال واحد ، بل تسأل عن هذه الأشياء المهمة"[١] .

ومن هذا القبيل أيضاً ما روى عن أبي أمامة قال : " إن حَبْراً مِن اليَهُودِ سَأَلَ النَبِيَ صلى الله عليه وسلم : أَيُّ البِقَاعِ خَيْرٌ ؟ فَسَكَتَ وجاءَ جبريل عَلَيهِ السَلام ، فَسَأَلَ فقَالَ : مَا المَسئُولُ عَنهَا بِأَعلَمَ مِنَ السَائِل ، ولَكِن أَسأَلُ رَبِّي تَبَارَكَ وتَعَالَى . ثم قَالَ جبريل : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي دَنَوْتُ مِن اللهِ دُنُوّاً مَا دَنَوْتُ مِنهُ قَطُّ . قال : " وكَيفَ كَانَ يَا جبريل ؟" قال : كَانَ بَينِي وبَينَهُ سَبعُونَ أَلفَ حِجَابٍ مِن نُورٍ ، فقَالَ :

" شَرُّ البِقَاعِ أَسوَاقُهَا ، وخَيرُ البِقَاعِ مَسَاجِدُهَا "[٢] .

---

(١) الكاشف : (٢ / ٤٣٣ ـ ٤٣٥) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك : حديث ٢١٤٨ ، قال : وله شاهد صحيح حديث ٢١٤٩ : (٢ / ٧ ، ٨) . والبيهقي في السنن الكبرى : كتاب الصلاة ـ باب فضل المساجد (٣ / ٦٥) . والطبراني في المعجم الأوسط : حديث رقم٧١٤٠: (٧ / ١٥٤) .

قال الطيبي : ".. فإن قلتَ : كيف قَرَنَ المساجد بالأسواق ؟ وكم من بقاعٍ شرٍ من الأسواق . قلتُ : ذهب في التقابل إلى معنى الإلهاء والإشغال . وإن العزّ الديني يدفعه الأمر الدنيوي . ولا شك أن الأسواق معدن الإلهاء عن ذكر الله وما والاه . ألا ترى إلى أنه تعالى كيف وصف أولياءه الذين جعلوا المسجد مأواهم بقوله :

(فِيْ بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ) [١] إلى قوله : (رِجَالٌ لا تُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ) [٢].

وقوله تعالى : (فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا البَيْعَ)[٣] فعلى هذا قوله : " شرّ البِقاع أسواقها " جاء مقرراً لما يعرف به خيرية المساجد وبضدها تتميّز الأشياء ، كأنه قال : خير البقاع بقعة مخلصة لذكر الله ، مسلمة عن الشوائب الدنيوية ، فالجواب من الأسلوب الحكيم ، حيث سئل عن الخير؛ أجيب عنه بضدّه ، وقدّم الداء على الدواء ، والمرض على الشفاء ، لما عسى أن يبدر من المكلف شيء في بيت الشيطان [٤] فيتداركه في بيت الرحمن .." [٥] .

وواضح أن السؤال كان عن خير البقاع فقط ، فاقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يحمل ملك الوحي عليه السلام الجواب مشتملاً على

---

(١) سورة النور : ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) سورة النور : ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) سورة الجمعة : ٩ .

(٤) أراد به السوق ، لما ورد من الحديث المذكور في معنى ذلك .

(٥) الكاشف : (٣ / ٩٥٥ ، ٩٥٦) .

تعيين خير البقاع ، وشر البقاع . فلما كان الجواب زائداً عن السؤال زيادة إرشادية نافعة اعتبر ذلك من أسلوب الحكيم .

ومن ذلك أيضاً : ما روي عن سهل بن سعد الساعدي أنه سُئل :

"من أي شيء المنبر؟ فقال : هو من أثل الغابة، عمله فلان مولى فلانة لرسول الله ، وقام عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عُمل ووُضع ، فاستقبل القبلة وكبّر وقام الناس خلفه، فقرأ وركع ، وركع الناس خلفه، ثم رفع رأسه، ثم رجع القهقرى حتى سجد بالأرض . . " الحديث[1] .

قال الطيبي : " قوله (أثل الغابة) قال في النهاية : الأَثْل : شجر شبيه بالطرفاء ، إلا أنه أعظم منه [2] ، والغابة غيضة ذات شجر كثير... أقول :

قوله (عمِلَه فلان ..إلى آخره) : زيادة في الجواب ، كأنه قال : سؤالُكَ هذا لا يهمّك ، بل المهمّ أن تعرف هذه المسألة الغريبة ، وهي نافعة لك . وإنما أدخل حكاية الصانع في البين لينبّه على أنه عارف بتلك المسألة وما يتصل بها من الأحوال والفوائد ، وهو من الأسلوب الحكيم"[3] .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الصلاة : باب الصلاة في السطوح والمنبر والخشب (١ / ٨٥) . وسنن ابن ماجة : كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها : باب ما جاء في بدء شأن المنبر (١ / ٤٥٥) .

(٢) النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير : (أثل) .

(٣) الكاشف عن حقائق السنن : (٤ / ١١٤٩ ، ١١٥٠) .

ومنه أيضاً: ما روي عن أبي جري جابر بن سليم قال: " أَتَيْتُ المَدِينَةَ فَرَأَيْتُ رَجُلاً يَصْدُرُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِ، لا يَقُولُ شَيْئاً إلا صَدَرُوا عَنْهُ. قُلْتُ: مَنْ هَذا ؟ قالُوا: هَذا رَسُولُ اللهِ . قال: قلتُ: عَلَيْكَ السَّلامُ يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَرَّتَيْنِ . قال: لا تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلامُ . عَلَيْكَ السَّلامُ تَحِيَّةُ المَيِّتِ . قُلْ: السَّلامُ عَلَيْكَ . قلتُ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ؟ فقال: أَنَا رَسُولُ اللهِ الذِي إنْ أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وإنْ أَصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَهَا لَكَ، وإذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ أَوْ فَلاةٍ فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتَهُ رَدَّهَا عَلَيْكَ . قُلْتُ: اعْهَدْ إلَيَّ . قَالَ: لا تَسُبَّنَّ أَحَداً . قال: فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ حُرّاً وَلا عَبْداً، وَلا بَعِيراً وَلا شَاةً . . . " الحديث[1] .

قال الطيبي رحمه الله : " قوله (أنا رسول الله ـ ﷺ ـ الذي إن أصابك ضرّ.. إلى آخره) فإن قلتَ : كيف طابق هذا الجواب سؤاله " أنت رسول الله ؟" قلتُ : هو من الأسلوب الحكيم . أي : لا تسأل عن كوني رسول الله ، فإن ذلك مقرر ثابت لا شك فيه . ولكن سَلْ عمّا بُعِثتُ له من كوني رحمة للعالمين ، ورسول أرحم الراحمين . ونظيره قول قوم صالح لمؤمنيهم :

(أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِن رَبِّه)[2] ... " [3] .

---

(١) سنن أبي داود : كتاب اللباس : باب ما جاء في إسبال الإزار : (٢ / ٣٧٨) . وسنن الترمذي : كتاب الاستئذان : باب ما جاء في كراهية أن يقول عليك السلام مبتدئاً : (٥ / ٧١ ، ٧٢) . والسنن الكبرى للبيهقي : كتاب الشهادات : باب شهادة أهل العصبية : (١٠ / ٢٣٦) .

(٢) سورة الأعراف : ٧٥ .

(٣) الكاشف : (٥ / ١٥٥٥ ، ١٥٥٦) .

وقد بيّن الطيبي في موضع آخر- سبق فيما مرّ-[١] محلّ الاستشهاد بالآية الكريمة وأنها من قبيل تلقي السائل بغير ما يتطلب تنبيهاً على ما هو أجدر بقصده وأولى باهتمامه . ويوضح ذلك قول الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية بعد بيان معنى الاستفهام الوارد حكاية عن كفار قوم صالح : (أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِن رَبِّه)[٢] : " فإن قلتَ : كيف صحّ قولهم : (قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) [٣] جواباً عنه ؟ قلتُ سألوهم عن العلم بإرساله ، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً ، لا يدخله ريب ، كأنهم قالوا : العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به ، فنخبركم أنَّا به مؤمنون ، ولذلك كان جواب الكفرة : (إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) [٤] .

فوضعوا " آمنتُم بِهِ " موضعَ " أُرسِلَ بِهِ " ردّاً لما جعله المؤمنون معلوماً ، وأخذوه مسلّماً ".

لكن ثمّة فرقاً بين الآية والحديث ، فإنه لما سأل الرجل النبيَّ صلى الله عليه وسلم :

" أنتَ رسولُ الله ؟ " أجابه عن سؤاله بقوله ﷺ : " أنا رسولُ الله " ثم زوَّدَه بجُمَلٍ من البيان حول أوصاف الربوبية تُثَبِّت عقيدته ، وتنفي عنه الريب والشك الذي ينزع إليه في أول عهده بالإسلام ، فكان السائل

---

(١) ينظر : (ص ٢٨ ، ٢٩) مما سبق .

(٢) سورة الأعراف : ٧٥ .

(٣) سورة الأعراف : ٧٥ .

(٤) سورة الأعراف : ٧٦ .

أحوجَ ما يكون إلى هذا الهدي النبوي الشافي من سقم الضلال والشرك ؛ حتى يستقرّ الإيمان في قلبه .

وإلى هذه الزيادة الإرشادية في الجواب أشار الطيبي بقوله : " أي : لا تسأل عن كوني رسول الله ، فإن ذلك مقرّر ثابت لا شك فيه ، ولكن سَلْ عَمَّا بُعِثتُ له من كوني رحمةً للعالمين ،ورسول أرحم الراحمين"[١].

ومن هذا القبيل أيضاً : ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

" لما نزلت هذه الآية : (والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ)[٢] كَبُرَ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِين فقال عُمَرَ: أَنَا أُفَرِّجُ عَنْكُم ، فانْطَلَقَ فقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّهُ كَبُرَ عَلَى أَصْحَابِكَ هَذِهِ الآيَةُ ، فقَالَ : " إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ الزَّكَاةَ إِلا لِيُطَيِّبَ مَا بَقِيَ مِن أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا فَرَضَ المَوَارِيثَ - وذَكَرَ كَلِمَةً - لِتَكُونَ لِمَن بَعْدَكُمْ " . فقَالَ : فَكَبَّرَ عُمَرُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : " أَلا أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ المَرْءُ ؟ المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ : إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ " [٣] .

وفي شرحه نقل الطيبي عن البيضاوي قوله :

" إنه ﷺ لمّا بيّن لهم أنهم لا حرج عليهم في جمع المال وكنزه ما داموا يؤدون الزكاة ورأى استبشارهم به ؛ رَغَّبَهُم عنه إلى ما هو خير

---

(١) الكاشف : (٥ / ١٥٥٥) .

(٢) سورة التوبة : من الآية ٣٤ .

(٣) رواه أبو داود في سننه : كتاب الزكاة ـ باب في حقوق المال : (١ / ٣٨٧) . وابن ماجة في سننه : كتاب الزكاة ـ باب ما أدي زكاته ليس بكنز ـ حديث ١٧٨٧ ـ (١ / ٥٦٩) . والبيهقي في السنن الكبرى : كتاب الزكاة : باب تفسير الكنز الذي ورد الوعيد فيه : حديث ٧٤٨٦ : (٤ / ١١) .

وأبقى ، وهي المرأة الصالحة الجميلة ، فإن الذهب لا ينفعك إلا بعد الذهاب عنك ، وهي مادامت معك تكون رفيقك تنظر إليها فتسرّك ، وتقضي عند الحاجة إليها وَطَرك وتشاورها فيما يعن لك فتحفظ سرّك ، وتستخدمها في حوائجك فتطيع أمرك ، وإذا غبت عنها تحامي مالك وتراعي عيالك ..." [١] .

ثمّ علَّق الطيبي على ذلك بقوله :

" هذا كلام حسن ، لكن في قوله " رغَّبهم إلى ما هو خير" بحث ، لأن رسول الله ﷺ ما رغَّبهم عن اقتناء المال رأساً ، بل أرشدهم إلى ما هو خير منه في النفع وأصلح لحالهم . وهذه الزيادة من باب الأسلوب الحكيم ، وتلقي المخاطب بغير ما يترقب ، فإن عمر رضي الله عنه ترقب في أمر المال ما يزيل عنه الحرج من اقتنائه ، فتلقاه رسول الله ﷺ بما حصل رضاه وزاد على ما توخّاه ، وقريب منه قوله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ) [٢] الآية .

وأما وجه المناسبة بين المال والمرأة ؛ فهو تصوّر الانتفاع من كلٍّ منهما ، وأنهما نوعا هذا الجنس [٣] ، ولذلك استثنى الله تعالى : (مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيْم) [*]

---

(١) الكاشف : (٥ / ١٤٨٠) .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢١٥ . وسبق بيان الطيبي للأسلوب الحكيم فيها . (ينظر : صـ ١٩) .

(٣) أي : جنس " ما يُكنز" في الحديث .

من قوله : (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ)[١] .." [٢] .

فقد أفاد هذا التحليل الوافي لمضمون الحديث أن الجواب الذي تلقى به سيدنا رسول الله ﷺ خطاب سيدنا عمر رضي الله عنه الذي نقل فيه شكوى الصحابة رضوان الله عليهم إلى حضرته عليه الصلاة والسلام ؛ جاء جواباً شافياً يحمل البشرى والفضل العظيم من الله سبحانه وتعالى ، ثم زادهم ﷺ بعد الفراغ من حل المسألة التي شقت عليهم ، زادهم فائدة أخرى عظيمة ، هي جديرة باهتمامهم ، وحرصهم على تحصيلها

وهي المرأة الصالحة التي أخبر عنها ﷺ بأنها " خير ما يكنز المرء" ، ومن ثم كانت هذه الزيادة النافعة . كما وصف الإمام الطيبي . من قبيل أسلوب الحكيم .

ومنه أيضاً : ما روي عن سلمان رضى الله عنه قال : "قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ بَرَكَةَ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ بَعْدَهُ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : "بَرَكَةُ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالْوُضُوءُ بَعْدَهُ " [٣] .

قال الطيبي رحمه الله :

" قوله (الوضوء قبله) أراد بالوضوء هنا غسل اليدين وتنظيفهما . وجوابه ﷺ من الأسلوب الحكيم ، حيث قرّر ما تلقاه به وزاد عليه .

---

(١) سورة الشعراء : (٨٨ ، ٨٩) .

(٢) الكاشف : (٥ / ١٤٨١) .

(٣) رواه الترمذي في سننه : كتاب الأطعمة : باب الوضوء قبل الطعام وبعده (٤ / ٢٨١) . وأبوداود في سننه : كتاب الأطعمة : باب في غسل اليد قبل الطعام : (٢ / ٣١١) . والإمام أحمد في مسنده : حديث رقم (٢٣٧٣٢) .

ومعنى بركة الوضوء في أول الطعام : النموّ والزيادة فيه . وفي آخره: عِظَمُ فائدة الطعام باستعمال النظافة . فإذا ترك ذلك ضربه الغم الذي حصل في يده من الطعام ، وعاقه عن استمرائه ، فالبركة في الأول بمعنى النموّ، وفي الآخر بمعنى التعظيم واستدامتها " [١] .

فالزيادة في الجواب هنا أضافت إلى المعنى المسئول عن صحته بما أفاد المتعلم إرشاداً جديداً ، وهو ما أفاده الظرف (قبله) الوارد في الحديث ، فصارت السُنة غسل اليدين قبل الطعام وبعده ، لأن الحديث دلّ على حصول البركة بذلك ، بينما اقتصر السؤال على الغسل بعد الطعام . فلا جرم أن أسلوب الحكيم قد حمل للسائل ثمرة تعليمية نافعة .

([١]) الكاشف : (٩ / ٢٨٥٤) .

المبحث الثالث

ما يقرب من أسلوب الحكيم

(وهو الضرب الثالث المشتمل على ما يشبه هذا الأسلوب)

من يتتبع شرح الطيبي وتحليله للأحاديث ؛ يجد أنه في بعض المواضع التي يبحث فيها أوجه المعنى ، وما تتضمنه من فنون البلاغة؛ يصف بعض التراكيب عقب بحث دلالتها بأنه قريب من الأسلوب الحكيم، أو أنه كالأسلوب الحكيم ، أو نحو ذلك مما يدلّ على إلحاق الأسلوب الوارد في الحديث به ، لأن فيه ما يشبه تلقي السائل بغير ما يتطلب ، أويشبه تلقي المخاطب بغير ما يترقب من ذلك تعليقه على ما جاء في روايتين متتابعتين نذكرهما كما وردا :

١- عن بريدة رضى الله عنه أن رجلاً قال : "يا رسول الله هل في الجنة من خيل؟

قال : " إن الله أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك في الجنة حيث شئت إلا فعلت" . وسأله رجل فقال : يا رسول الله هل في الجنة من إبل ؟ قال : فلم يقل له ما قال لصاحبه . فقال : " إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك "[1] .

([1]) رواه الترمذي في سننه : كتاب صفة الجنة ـ باب ما جاء في صفة خيل الجنة ـ حديث ٢٥٤٣ : (٤ / ٦٨١) . وابن الأثير في جامع الأصول : حديث ٨٠٤٩ ـ (١٠ / ٥٠٨) . والسيوطي في الجامع الكبير: حديث ٣٦٤٥٠ . وهو في كنز العمال للمتقي الهندي حديث ٣٩٧٧٦ ـ (١٤ / ٦٤٨) .

٢ ـ وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال : " أَتَى النبيَ صلى الله عليه وسلم أَعرابِيٌّ فقال : يا رسولَ الله إِنِّي أُحِبُّ الخَيْلَ ، أَفِي الجَنَّةِ خَيْلٌ ؟ قال رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " إِنْ أُدْخِلْتَ الجَنَّةَ أُتِيتَ بِفَرَسٍ مِن ياقُوتَةٍ لَهُ جَنَاحانِ ، فَحُمِلْتَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طارَ بِكَ حَيْثُ شِئْتَ " [١] .

ذكر الطيبي وجهين للمعنى المراد من خيل الجنة التي وصفها النبي ﷺ في جوابه على السائل هنا :

أولهما : ما نقله عن القاضي البيضاوي أن " تقدير الكلام : إن أدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تحمل على فرس كذلك إلا حُمِلت عليه ، المعنى : أنه ما من شيءٍ تشتهيه النفس إلا وتجده في الجنة كيف شاءت ، حتى لو اشتهت أن تركب فرساً على هذه الصفة لوجدته وتمكنت منه " [٢] .

والثاني : ما وضحه بقوله : " ويحتمل أن يكون المراد : إن أدخلك الله الجنة فلا تشاء أن يكون لك مركب من ياقوتة حمراء يطير بك حيث شئت... والمعنى : فيكون لك من المراكب ما يغنيك عن الفرس المعهود ، ويدل على هذا المعنى ما جاء في الرواية الأخرى ، وهو : " إن أُدْخِلتَ الجنّة أُتِيتَ بِفَرَسٍ من ياقوتةٍ ، له جناحان ، فحملت عليه " .

ولعله ﷺ لما أراد أن يبيّن الفرق بين مراكب الجنة ومراكب الدنيا ، وما بينهما من التفاوت على التصوير والتمثيل ؛ مَثَّل فرس الجنة في

([١]) سنن الترمذي : كتاب صفة الجنة ـ باب ما جاء في صفة خيل الجنة ـ حديث ٢٥٤٤ : (٤ / ٦٨٢) . وجامع الأصول : حديث ٨٠٤٨ ـ (١٠ / ٥٠٧) .

([٢]) الكاشف عن حقائق السنن : (١١ / ٣٥٦٦) .

جوهره بما هو عندنا أثبت الجواهر ، وأدومها وجوداً ، وأنصعها لوناً ، وأصفاها جوهراً [١] ، وفي شدة حركته وسرعة انتقاله بالطير ، وأكَّد ذلك في الرواية الأخرى بقوله :

(له جناحان) ، وعلى هذا قياس ما ورد في صفة أبنية الجنة ورياضها وأنهارها ، إلى غير ذلك ، والعلم بحقائقها عند الله .." [٢] .

ثم قال الطيبي : " والوجه الثاني من الوجهين السابقين قريب من الأسلوب الحكيم ، فإن الرجل سأله عن الفرس المتعارف في الدنيا ، فأجابه ﷺ بما في الجنة ، أي : اترك ما طلبت فإنك مستغنٍ عنه بهذا المركب الموصوف " [٣] .

ومما اعتبره من هذا الضرب : ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه:

" أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد أو شاب، ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنها أو عنه، فقالوا: مات . قال: " أفلا كنتم آذنتموني ؟ " قال: فكأنهم صغروا أمرها أو أمره . فقال: " دلوني على قبره " ، فدلوه فصلى عليها ، ثم قال صلى الله عليه وسلم: " إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها ، وإن الله ينورها لهم بصلاتي عليهم " [٤] .

---

(١) أراد به الياقوت ، كما في عبارة الحديث .

(٢) المصدر والموضع نفسه .

(٣) الكاشف : (١١ / ٣٥٦٧) .

(٤) رواه البخاري في الصحيح : كتاب الصلاة ـ باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان :(١ / ٩٩)

=

قال الطيبي : " قوله (تَقُمَّ المَسْجد) : أي تَكْنِسُهُ.. وقوله : (قال: فكأنهم صَغَّرُوا أمرها) وهو[١] معطوف على " قال" الأولى ، ومقول أبي هريرة .. وأما قول رسول الله ﷺ : (إنَّ هذه القبور مملوءةٌ ظلمةً ..إلى آخره) : فكالأسلوب الحكيم ، يعني ليس النظر في الصلاة على الميت إلى حقارته ورفعة شأنه ، بل هي بمنزلة الشفاعة له ، لينوّر قبره ويخفّف من عذابه.." [٢] .

فقد اعتبر الطيبي الفقرة الأخيرة من الحديث مما يشبه أسلوب الحكيم ، لا من صريحه ، لأنها لم ترد جواباً عن سؤال تلقي فيه السائل بغير ما يتطلب ، وليست مواجهة لخطاب مخاطب مباشر تتلقاه بغير ما يتطلب . ولكن لما دلّ حالهم على تحقير أمر هذه المرأة ، واعتبارهم إياها من جملة الخَدَم ، فصغُر شأنها عندهم ، وأشعرت حالهم بتوارد خاطر أن رسول الله ﷺ إنما يصح أن يطلبوه ويستدعوه للصلاة على ذوي المنزلة والشأن والسادة من أفرادهم ، دون العبيد والخدم ، فأراد النبي ﷺ أن يلفت انتباههم إلى ما هو الأنفع لهم ، وإلى ما ينبغي أن يكون المقصود الأهمّ لهم في صلاته ﷺ على أمواتهم . وبسبب هذه اللفتة أشبه الكلام أسلوب الحكيم .

وهو في صحيح مسلم : كتاب الجنائز ـ باب الصلاة على القبر(٧ / ١٥ ، ١٦). ومسند أحمد : حديث
رقم (٩٠٣٧) .

(١) الضمير لقوله " فكأنهم صغروا أمرها " .

(٢) الكاشف : (٤ / ١٣٩٥) .

ومن هذا القبيل ما روي عن طاووس مرسلاً ، قال : "سُئِلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم :

أَيُّ النَّاسِ أَحْسَنُ صَوْتاً لِلْقُرْآنِ ؟ وَأَحْسَنُ قِرَاءَةً ؟ قال : "مَنْ إِذَا سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ أُرِيْتَ أَنَّهُ يَخْشَى اللهَ "[1] .

قال الطيبي : " قوله : " أُرِيْتَ أَنَّهُ يَخْشَى الله " : أي من حسبته وظننته أنه يخشى الله وتظهر أمارات الخشية منه ، ويتأثر به قلبك . ولا يكون القارئ حينئذ إلا عالماً بزواجره وقوارعه ومواعيده ، فيخشى عذاب الله ، ويرجو رحمته . وكأن الجواب من الأسلوب الحكيم ، حيث اشتغل في الجواب عن الصوت الحسن بما يظهر الخشية في القارئ والمستمع"[2] .

وظاهر أن الإمام الطيبي شبّه الجواب هنا بالأسلوب الحكيم من جهة أن السائل لما سأل عن أحسن الناس صوتاً بالقرآن ظن أن النبيّ ﷺ سيذكر لقارئ القرآن خصائص تتعلق بصوته ، كأن يكون أجشَّ الصوت أوجهيره أو نحو ذلك ، أو أنه سيذكر سماتٍ تميّز نمط القراءة الصوتي ، كالتغني بالقرآن أو تركه ، وما شابه ذلك . لكن النبيّ صلى الله عليه وسلم أعرض عن تلك المقاصد كلها ، ولفت انتباهه إلى المقصود الأهمّ ، وهو أن يظهر أثر خشية الله ومهابته في قراءته ،

---

[1] رواه الدارمي في سننه : كتاب فضائل القرآن ـ باب التغني بالقرآن ـ حديث رقم ٣٤٨٩ : (٢ / ٥٦٣)

[2] الكاشف : (٥ / ١٦٩٢) .

مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى : (إِنَّمَا المُؤمِنُونَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم)[١] .

ومن ذلك أيضاً ما روي عن عثمان بن مظعون قال : "يا رسول الله ائذن لنا في الاختصاء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس منا من خصى أو اختصى إن خصاء أمتي الصيام" . فقال : ائذن لنا في السياحة . فقال صلى الله عليه وسلم : "إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله" . فقال : ائذن لنا في الترهب . فقال : "إن ترهب أمتي الجلوس في المساجد انتظار الصلاة"[٢] .

قال الطيبي : " قوله (من خصى) يقال : خَصَيْتُ الفَحلَ خِصاءً : أي سَلَلْتُ خصيته واخْتَصَيْت : إذا فعلت ذلك بنفسك ، وتقدير الكلام : ليس منا مَن خَصَى ولا مَن اخْتَصَى . فحذف "من" لدلالة ما قبلها عليها . والمعنى : ليس من فعل ذلك ممّن يهتدي بهدينا ويتمسك بسنتنا . ولعل إيجاب تقدير "من" لئلا يتوهم أن التهديد وارد على من جمع بين الخصاء والاختصاء ، ولا يتناول من تفرد بأحدهما ..

وقوله : (في السياحة) السياحة : مفارقة الأمصار والذهاب في الأرض ، كفعل عُبَّاد بني إسرائيل . قوله (في الترهب) من رهبته ،

---

(١) سورة الأنفال : من الآية ٢ .

(٢) سنن أبي داود : كتاب الجهاد ـ باب في النهي عن السياحة : (٢ / ٥) ، وشرح السنة للبغوي : حديث رقم ٤٨٤ ـ (٢ / ٣٧٠) . وشعب الإيمان للبيهقي : حديث ٣٩٢٢ ـ (٤ / ١٤) وكنز العمال : حديث ١٠٥٢٦ ـ (٤ / ٢٨٦) .

وأصلها من الرهبة والخوف ، كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا ، وترك ملاذّها ، والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها .

فإن قلت : هل تسمى هذه الأجوبة بأسلوب الحكيم ؟ قلت : لا يبعد ذلك ، لأن ظاهر الجواب المنع ، فلمّا أرشدهم إلى ما هو الأصوب والأهمّ بحالهم من القصد في الأمور ، والتجنب عن طرفي الإفراط والتفريط المذمومين ؛ دخلت في الأسلوب . ولما كان السؤال الأول بعيداً من الحكمة ، وهي ما خُلِق الإنسان لأجله من تكاثر النسل لعبادة الله ؛ قدّم الزجر والتوبيخ تنبيهاً على ما هو الأَولى " [١] .

وروده في معارضة الأسلوب الأحمق

قد يواجه الأسلوب الحكيم ضده المقابل له ، وهو الأسلوب الأحمق . وقد استفاده الطيبي من كلام الزمخشري في تفسير قول الله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيْمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيْتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيْتُ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَمْسِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِب ...) الآية [٢] .

قال جار الله في قوله : (قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيْتُ) : " يريد أعفو عن القتل وأقتل ، وكان الاعتراض عتيداً ، ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجّه فيه ، ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو

---

(١) الكاشف : (٣ / ٩٤٣) .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٨ .

ذلك الجواب ليبهته أول شيء ، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة " [١] .

وقد ورد في بعض الأحاديث ما خرّجه الطيبي على هذا الأسلوب ، حيث كان هناك حوار أو مماراة بين الحق والباطل ، ويتضح ذلك فيما روي :

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : " جاء ابن النواحة وابن أثال ؛ رسولا مسيلمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما : " أتشهدان أني رسول الله ؟ فقالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " آمنت بالله ورسوله ، ولو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما " قال عبد الله : فمضت السنة أن الرسول لا يقتل " [٢] .

قال الطيبي رحمه الله : " قوله : (قالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله) : جواب غير مطابق للسؤال ، ولا لنفس الأمر ، لأن رسول الله ﷺ أراد بقوله (أتشهدان أني رسول الله ؟) : إني قد ادّعيت الرسالة، وصدقتها بالمعجزة ، فأقرّا بذلك .

فقولهما : (نشهد أن مسيلمة..) ردّ لهذا المعنى . كأنهما أنكرا أن الرسالة تثبت بالمعجزة ، وكان جوابهما من الأسلوب الأحمق . وقول رسول الله ﷺ لهما بعد ذلك : (آمنت بالله ورسوله) إشارة إلى هذا المعنى . حيث لم يقل : آمنت بالله وبي . بل قال : (ورسوله) أي : لمن ادّعى الرسالة وأثبتها بالمعجزة كائناً من كان . وهو من الكلام

---

(١) الكشاف : (١ / ٣٨٨) .

(٢) مسند الإمام أحمد : حديث رقم ٣٧٦١ : (٦ / ٣٠٦) . وسنن الدارمي : كتاب السير ـ باب في النهي عن قتل الرسل : حديث ٢٥٠٣ : (٢ / ٣٠٧).

المنصف ، وكأنهم ترقبوا أن يشرك رسول الله ﷺ مسيلمة في الرسالة ، فنفاه بقوله (ورسوله) أي : إنه ليس من معنى الرسالة في شيء ، فيكون كلامه ﷺ من الأسلوب الحكيم.." [١] .

والملاحظ أن ما يسمى "بالأسلوب الأحمق" كثيراً ما يرد في مقام المحاجّة ، وتدافع الحق والباطل بين خصمين ، مع لجاجة المبطل ، وإصراره وعناده ، كما يتضح في حالة الذي حاجَّ سيدنا إبراهيم عليه السلام في ربه في الآية السابقة . وأما في الحديث فلم ينصّ صراحة على محاجّة أو مناقشة دارت بين الطرفين ، ولعله كان هناك حوار دار بين رسولي مسيلمة الكذاب وبين رسول الله ﷺ قبل ما ذكره راوي الحديث في هذه الرواية ، ولكن الراوي وجّه عنايته إلى هذا الجزء الأخير من المحاورة ، خصوصاً لما اشتمل عليه من حكم شرعي من أحكام المعاملات ، وهو أن الرسول لا يقتل .

والحاصل أن للسؤال الوارد هنا مستنداً عقلياً أفصح عنه الطيبي بقوله في تحليل قوله ﷺ : (أتشهدان أني رسول الله) : " إني قد ادعيت الرسالة وصدّقتها بالمعجزة فأقرّا بذلك" ، يعني أنه ﷺ أراد منهما الرجوع إلى أنفسهما ، واستنصاح الضمير ، عسى أن يعودا إلى الحق وينتهيا عن غيهما ، ولكن جاء جوابهما على خلاف ما يترقب مما كان يرجوه ﷺ من هدايتهما ، فقالا : " نشهد أن مسيلمة رسول الله " فكان هذا الرد جديراً بقدر ما يحمله من الجهل والغباوة والإصرار على الإقامة على الضلال ؛ أن يسمى بالأسلوب الأحمق ، لأنه على الضد من الأسلوب الحكيم في أثره وموقعه لدى السامع .

([١]) الكاشف عن حقائق السنن : (٩ / ٢٧٥٥) .

الخـاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات ، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء وسيد الكائنات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

ففي ختام هذه الرحلة الطيبة مع الأسلوب الحكيم في أحاديث خير البرية ﷺ ؛ من خلال شرح الإمام العلاّمة شرف الدين الطيبي رحمه الله ؛ يمكننا أن نستخلص بعض النتائج :

أولاً : ثراء البلاغة النبوية بالأساليب البلاغية التي طبقت المفصل ، ووقعت في أحسن مواقعها ، فقد اشتملت أحاديث المصطفى ﷺ على ألطف الاعتبارات المناسبة لمقامات الكلام في كل ما تناولته من القضايا والأحوال .

ثانياً : وقوع أسلوب الحكيم في الأحاديث النبوية الشريفة ألطف مواقعه من الكلام ، فقد جاء مطابقاً لمقتضى حال السائل أو المخاطب ، ووضع الدواء في موضع الداء في كل ما ورد فيه من العبارات النبوية ، فكانت نماذج تحتذى لأساطين البلغاء وحذّاق الأدباء .

ثالثاً : إحاطة بصر الإمام الطيبي بالأساليب ، ودقة بحثه لأسلوب الحكيم في بلاغة النبي ﷺ ـ على نحو ما لاحظنا في النماذج التي عرضناها من شرحه له ـ وهو دأبه في بحثه للطائف المعاني والبيان والبديع الأخرى في تلك البلاغة العالية ، فقد أَوْلَى النكات البلاغية في الأحاديث عناية خاصة يعرفها من يتأمل شرحه .

رابعاً : اقتفى الطيبي أثر البلاغيين في معْنِيّهِم بأسلوب الحكيم ، وسارعلى طريقة السكاكي والمتأخرين ؛ في تحليله لما ورد في الأحاديث الشريفة من هذا الأسلوب ، وإن كنا نجده في كتابه " التبيان في البيان"

قد أدرج الأسلوب الحكيم ضمن فنون البديع ؛ على حين اعتبره البلاغيون من قبيل إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، فهو عندهم من مباحث علم المعاني .

خامساً : في دراسته المتأنية وبحثه الدقيق لنماذج هذا الأسلوب ؛ تظهر شخصية الإمام الطيبي البلاغية ، وتبرز ملامحها جليّة من خلال ما يضيفه في تحليلاته من نتائج فكره ، وما يستمده من معين ثقافته الواسعة ، على نحو ما لاحظنا في المبحث الثاني من اعتباره الزيادة في جواب السائل بما ينفعه ويلائم حاله داخلة في أسلوب الحكيم ، وتشبيهه ذلك بزيادة الطبيب نوعاً من الدواء الناجع في معالجة الداء .

سادساً : تأثر الإمام الطيبي بدا واضحاً بالإمام الزمخشري في غير موضع من شرحه ونذكر من ذلك على سبيل المثال حديثه عن الأسلوب الأحمق في أحد النماذج التي ورد فيها أسلوب الحكيم مواجهاً لجواب الأحمق ، ورادّاً عليه . ولاغرو فالإمام الطيبي قد عايش تفسير الزمخشري ، وخاض بحوره زمناً ليس بالقصير ، كما يفصح عن ذلك شرحه للكشاف في حاشيته الكبيرة المشهورة " فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب " .

سابعاً : عند مقارنة زمن الفراغ من كتاب " مشكاة المصابيح" للخطيب التبريزي بتاريخ وفاة الإمام الطيبي ، مع ملاحظة عظم حجم الشرح ؛ يبدو لنا أن هذا الشرح الذي وضعه الإمام الطيبي على المشكاة من أواخر ما صنفه في حياته ؛ إن لم يكن هو آخر ما كتبه على الإطلاق ، ذلك أن صاحب المشكاة ذكر أنه فرغ منه في رمضان سنة (٧٣٧ هـ) ، والإمام الطيبي توفي سنة (٧٤٣ هـ) . وذلك إن دلّ فإنما يدلّ على أن الطيبي قد نثر في هذا الشرح خلاصة حصيلته

العلمية ، وأن ثمار جهوده اللغوية والنحوية والبلاغية قد آتت في هذا الشرح أُكُلَهَا ، مما يرفع من قيمة الكتاب العلمية ويجعله بحق كما سماه" الكاشف عن حقائق السنن " .

ثامناً : من خلال ما تقدم أرى أنه يجدر بدارسي البلاغة والباحثين في علومها

أن يعتنوا بهذا السفر الجليل ، كما ظهرت عنايتهم بصنوه شرح الطيبي على الكشاف . فأحسب أنه كما اجتهد الزمخشري في الكشف عن وجوه البلاغة القرآنية في كتابه الكشاف ؛ فقد اجتهد الطيبي في الكشف عن وجوه البلاغة النبوية في كتابه هذا " الكاشف " .

تاسعاً : إن كان قد أطلق بعض العلماء اسم " أسلوب الحكيم" على فن

" القول بالموجب" من المحسنات البديعية ؛ نظراً لشبه نوع من الثاني بنوع من الأول ـ كما تبين ذلك عند دراستنا لأسلوب الحكيم وأقوال العلماء فيه ـ فإن ثمة

ما يفرق بين البابين ؛ خصوصاًإذا نظرنا إلى الضرب الأول من " القول بالموجب" كما ذكره صاحب التلخيص ، والذي لا يتفق مع أسلوب الحكيم ، على نحو ما سبق بيانه .

والله الهادي إلى سواء السبيل ، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

المصادر والمراجع

١ـ الأطول شرح تلخيص المفتاح : لعصام الدين إبراهيم بن عربشاه الحنفي ، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ـ دارالكتب العلمية : بيروت ٢٠٠١ م .

٢ـ الأعلام : لخير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين : بيروت .

٣ـ الإيضاح : للخطيب القزويني ـ بتحقيق الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : المكتبة الأزهرية للتراث : الطبعة الثالثة ١٩٩٣ م .

٤ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للإمام جلال الدين السيوطي ـ المكتبة العصرية : صيدا ـ بيروت .

٥ـ التبيان في البيان ، للإمام شرف الدين الطيبي ، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد الستار زموط ـ دار الجيل : بيروت .

٦ـ تاريخ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون : الطبعة الرابعة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٧ـ التفسير الكبير ، لفخر الدين الرازي ـ دار الفكر : بيروت .

٨ـ تلخيص المفتاح : للخطيب القزويني ـ ضمن شروح التلخيص ـ الطبعة الأولى ١٣١٨ هـ ـ المطبعة الأميرية ببولاق .

٩ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، لمجد الدين أبوالسعادات ابن الأثير ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ـ مطبعة الملاح : بيروت ١٩٧٠م.

١٠ـ حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ـ دار صادر : بيروت .

١١ـ خزانة الأدب وغاية الأرب ، لابن حجة الحموي ـ تحقيق عصام شعيتو دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ١٩٨٧ م .

١٢ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ـ دار الجيل ـ بيروت .

١٣ـ سنن ابن ماجة ، بتحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي ـ ط عيسى البابي الحلبي .

١٤ـ سنن أبي داود ـ الطبعة الأولى : مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٢ م .

١٥ـ سنن الترمذي : بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ـ ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٨ م .

١٦ـ سنن الدارمي : تحقيق فواز أحمد زمرلي ، وخالد السبع العلمي : دار الكتاب العربي : بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .

١٧ـ سنن النسائي : تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ـ مكتب المطبوعات الإسلامية : حلب : ١٩٨٦ م .

١٨ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلي ـ دار المسيرة : بيروت .

١٩ـ شرح السنة للإمام أبي محمد البغوي ـ دار الكتب العلمية : بيروت .

٢٠ـ شرح عقود الجمان :للإمام السيوطي ـ تحقيق محمد عثمان ـ المكتبة الأزهرية للتراث ٢٠١١ م .

٢١ـ شعب الإيمان للبيهقي ـ تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية : الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ .

٢٢ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، للقلقشندي ، تحقيق د. يوسف علي طويل ـ دارالفكر: دمشق ١٩٨٧ م .

٢٣ـ الصحاح ، للجوهري ـ تحقيق أحمد عبد الغفورعطارـ الطبعة الثانية ١٩٨٢م

٢٤ـ صحيح ابن حبان ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة: ١٩٩٣ .

٢٥ـ صحيح ابن خزيمة ، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي ـ المكتب الإسلامي : بيروت ١٩٧٠ م .

٢٦ـ صحيح البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٩ م .

٢٧ـ صحيح مسلم بشرح النووي ـ المطبعة المصرية ومكتبتها ١٩٢٤ م .

٢٨ـ طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين السبكي ـ الطبعة الأولى : عيسى البابي الحلبي .

٢٩ـ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، لبهاء الدين السبكي ـ ضمن شروح التلخيص ـ الطبعة الأولى ١٣١٨ هـ : المطبعة الأميرية ببولاق .

٣٠ـ الفائق في غريب الحديث ، للزمخشري ـ دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي ـ ١٩٤٧ م .

٣١ـ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب : سورة الأنعام والأعراف : رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة : جامعة الأزهر ـ تحقيق ودراسة الباحث جميل محمد الحسين المحمود .

٣٢ـ الكاشف عن حقائق السنن (شرح الطيبي على مشكاة المصابيح) ـ تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ـ ط مكتبة نزار مصطفى الباز ٢٠٠٤ م .

٣٣ـ الكشاف ، للإمام الزمخشري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٢ م .

٣٤ـ المستدرك على الصحيحين ، للإمام الحاكم النيسابوري ـ عالم الكتب : بيروت

٣٥ـ المطول في شرح تلخيص المفتاح ، لسعد الدين التفتازاني ـ المكتبة الأزهرية للتراث ـ مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ .

٣٦ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، للشيخ عبد الرحيم العباسي : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ عالم الكتب : بيروت ١٩٤٧ م .

٣٧ـ مفتاح العلوم ، للسكاكي ـ تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ـ دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٠ م .

٣٨ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناحي ـ المكتبة العلمية : بيروت ١٩٧٩م.

٣٩ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، لإسماعيل باشا البغدادي المطبعة البهية : استانبول ١٩٥٥ م ـ منشورات مكتبة المثنى : بغداد .